الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٣٠	فى مصر والسودان
٥٠	فى الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

العدد ٦٣ — ١٧ رجب سنة ١٣٥٨ — أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ — السنة الثالثة

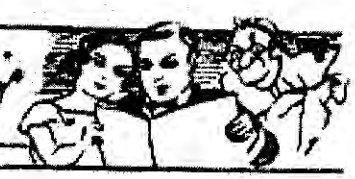

فهرس العدد

صفحة			
٨٤٢	الرهان	للقصصى الروسى أنطون تشيكوف	بقلم الأستاذ سعد حسين سعد
٨٤٧	الورقة المهلكة	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
٨٥٣	تزوجت جاسوسا	عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...
٨٦٥	موت الدوقين	للكاتب الفرنسى ألفونس دوديه	بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد
٨٦٧	فصاص	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب السيد محمد الزاوى
٨٧٤	فى طريق الغرام	أقصوصة عراقية	بقلم الأديب السيد قاسم محمد ...
٨٨٨	العزيزة	للقصصى الروسى أنطون تشيكوف	بقلم الأستاذ حنفى محمود جمعة ...

الرهان

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ سعد حسين سعد

فى إحدى ليالى الخريف المظلمة كان المول العجوز يذرع حجرة مكتبه من ركن إلى آخر ، وهو يستعيد فى ذهنه ذكرى المأدبة التى أقامها فى الخريف لخمسة عشر عاماً خلت . كانت المأدبة تضم كثيراً من نوابغ القوم تدور بينهم أحاديث ممتعة شتى . ومال بهم الحديث إلى الكلام عن عقوبة الإعدام ، فلم يقرها أكثر الضيفان ، وكان بينهم غير قليل من الأدباء والصحافيين ، واعتدوها عقوبة باطلة همجية لا تليق بدولة مسيحية . ورأى بعضهم أن هذه العقوبة يجب إبدالها فى جميع أنحاء العالم بالسجن المؤبد .

فقال المضيف : « أنا أخالفكم فى هذا الرأى . ولو أنه لم يسبق أن حكم علىّ بالإعدام أو بالسجن المؤبد ، فى اعتقادى أن عقوبة الإعدام أرق وأرحم من السجن . فالإعدام يقتل فوراً ، أما السجن المؤبد فيقتل تدريجياً . فأى الجلادين أرحم : الذى يقتل فى ثوان معدودة ، أم الذى يستل الحياة على الدوام فى عدة سنين ؟ »

فأجاب أحد الضيفان : « كلاهما متوحش ، لأن غرضهما واحد وهو انتزاع الحياة . إن الدولة ليست خير من ألا تعيش قط »

ثم احتدمت المناقشة ، وكان المول يومئذ أصغر سناً وأحد مزاجاً ، فخرج عن طوره فجأة وجعل يضرب المنضدة فى عنف بقبضة يده ثم اتجه للمحامى الشاب صائحاً : « أنت تكذب . وإنى أراهنك بمليونين إن استطعت أن تلزم حبساً ولو لمدة خمسة أعوام »

فأجاب المحامى : « إذا كنت جاداً فيما تقول فإنى أراهن أن أمكث فيه لا أعواماً فقط ، ولكن خمسة عشر عاماً »

فصاح المول : « خمسة عشر ! فليكن ! أيها السادة إنى أراهن بمليونين »

فقال المحامى : « موافق . أنت تراهن بمليونين وأنا أراهن بحريتى »

وهكذا جرى هذا الرهان الوحشى المضحك . واستطير المول فرحاً ، إذ كان فى ذاك الوقت يملك ملايين كثيرة ، وكان متلافاً ذا بدوات وأهواء .

قال للمحامى أثناء العشاء مازحاً : « تدبر الأمر مليًّا أيها الشاب قبل فوات الوقت . إن مليونين لا قيمة لها عندى ، ولكنك ستخسر ثلاثة أو أربعة الله . وليس لها الحق فى انتزاع مالا يمكنها استرداده عندما تشاء »

وكان فى الرفقة محام شاب يناهز الخامسة والعشرين ، فلما سئل رأيه قال : « الإعدام والسجن المؤبد كلاهما عمل همجى . لكن إذا خيرت بين أحدهما فلا شك أنى أختار الثانى . فلأن تعيش على وجه ما

أعوام من أحسن سنى عمرك . أقول ثلاثة أو أربعة أعوام لأنك لن تستطيع الاحتيال على نفسك أكثر من ذلك . ولا تنس ـ أيها التعس ـ أن السجن الاختيارى أمهظ على النفس من الإجبارى ، لأن الاعتقاد بأنك فى حل من إخلاء نفسك فى أى وقت يسمم كل حياتك فى الحبس . إنى أرثى لك »

تذكر المحامى كل هذا وهو يروح ويجيء من ركن إلى آخر ثم تساءل : « لم أجريت هذا الرهان ؟ ما الفائدة ؟ المحامى يضيع خمسة عشر عاماً من حياته وأنا ألقى بمليونين سدى ... هل هذا سيقنع الناس أن عقوبة الإعدام شر أو خير من السجن مدى الحياة ؟ كلا . كلا ! كله عبث وهراء ، كان من جانبى هوى رجل أبشمه الثراء ، ومن جانب المحامى شدة شراهة للذهب »

وتذكر غير ذلك مما حدث بعد المأدبة . فقد تقرر أن يمضى المحامى مدة السجن تحت أدق مراقبة فى جناح من حديقة منزل المحامى . واتفق أن يحرم على المحامى طيلة المدة ، عبور العتبة ، ورؤية الناس الأحياء ، وسماع الأصوات البشرية ، واستلام الرسائل والصحف . وسمح له بافتناء آلة موسيقية ، وقراءة الكتب ، وكتابة الرسائل ، وشرب النبيذ ، وتدخين التبغ . وتيسر له حسب الاتفاق أن يتصل بالعالم الخارجى ، فى صمت فقط ، خلال نافذة صغيرة أنشئت لهذا الغرض ، كما تسنى له الحصول على كل ما يلزمه من كتب وقطع موسيقية ونبيذ بأى قدر كان ، وذلك بإرسال مذكرة من النافذة . وألم الاتفاق بكافة التفاصيل الدقيقة التى جعلت الحبس فى منتهى العزلة والانقطاع وألزمت المحامى أن يمكث خمس عشرة سنة كاملة من الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٠ إلى الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥ ، حتى إذا ما قام بأدنى محاولة لنقض الشروط أو الهرب ولو قبل انتهاء المدة بدقيقتين فقط ، فإنها تعفى الممول من دفع المليونين

فى غضون السنة الأولى من الحبس قاسى المحامى — حسب ما أمكن معرفته من مذكراته القصيرة — أهول عذاب من الوحدة والسأم ، وكان يصدر صوت البيانو من جناحه نهاراً وليلاً ، وأقلع عن التبغ والنبيذ ، فقد كتب : « إن النبيذ يثير الشهوات ، والشهوات ألد أعداء السجين . وفوق ذلك فليس هناك ما يضجر أكثر من شرب النبيذ الجيد على انفراد » كما كان التبغ يفسد هواء حجرته . وأرسلت إليه فى السنة الأولى كتب خفيفة سهلة الهضم كالروايات الغرامية وقصص الجرائم والخيال والمهازل وما إليها

وفى السنة الثانية لم يعد يسمع البيانو ، ولم يطلب المحامى سوى كتب الآداب الرفيعة . وفى السنة الخامسة سمعت الموسيقى ثانية وطلب السجين نبيذاً . وقال الذين يراقبونه : إنه طيلة هذا العام لم يكن يعمل إلا أن يأكل ويشرب ويرقد على الفراش . وكان غالباً يتثاءب ويكلم نفسه بغضب ، ولم يعد يقرأ الكتب ؛ وكان أحياناً يجلس فى الليل ليكتب . وقد يكتب زمناً طويلاً وفى الصباح يمزق كل ما كتب . وسمع أكثر من مرة وهو يبكى

وفى النصف الأخير من السنة السادسة ، شرع السجين يدرس بهمة اللغات والفلسفة والتاريخ ، وانكب على هذه المواضيع بنهم حتى أن الممول لم يجد الوقت الكافى لتزويده بالكتب اللازمة . وفى مدى أربع سنوات اشترى له بناء

على طلبه زهاء ستمائة كتاب . وفى إبان هذا الحماس وصل المول من السجين الكتاب الآتى « سجانى العزيز ، أكتب إليك هذه السطور بست لغات . فاعرضها على الخبراء ليقرؤوها ؛ فإن لم يعثروا فيها على غلطة واحدة ، أرجو أن تصدر أوامرك بإطلاق بندقية فى الحديقة . وسأعرف على صوتها أن مجهوداتى لم تذهب هباء . إن العبقريات فى كل عصر ومصر تتكلم بألسنة مختلفة ، ولكنها جميعاً تتفق فيها شملة واحدة . أوه ! ليتك تعلم كم أنا سعيد إذ أستطيع فهمها الآن ! »

وحققت رغبة السجين فقد أطلقت فى الحديقة طلقتان بأمر المول .

وبعد السنة العاشرة كان المحامى يجلس دون حراك إلى المنضدة ، ولا يقرأ سوى الإنجيل . واستغرب المول من الرجل أن يقرأ فى أربع سنوات ستمائة مجلد فى كافة العلوم والمعارف ، وبسلخ قرابة عام فى قراءة كتاب واحد سهل الفهم صغير الحجم . ثم خلف الإنجيل بعد ذلك كتب فى اللاهوت ، وتاريخ الأديان .

وفى خلال السنتين الأخيرتين من الحبس كان السجين يقرأ خليطاً عجيباً حسبما اتفق . فتارة ينقطع للعلوم الطبيعية ، وطوراً يقرأ بيرون وشاكسبير ، وفى نفس الوقت كانت ترد منه مذكرات يطلب فيها إما كتاباً فى الكيمياء أو كتاباً فى الطب ، أو رواية ، أو رسالة فى الفلسفة أو اللاهوت . كان يقرأ كأنه يسبح فى بحر بين حطام سفينة غريقة وهو يتعلق بقطعة بعد أخرى محاولاً إنقاذ حياته .

تذكر المول كل هذا ثم قال فى نفسه : « غداً فى الساعة الثانية عشر ليلاً يسترد حريته ، وسألزم بدفع مليونين له تنفيذاً للاتفاق . فإذا دفعت فعلى العفاء . سيقضى علىّ إلى النهاية ... »

منذ خمسة عشر عاماً مضت كان لديه ملايين لا عداد لها ، أما الآن فهو يخشى أن يسأل نفسه أيهما أكثر : نقوده أم ديونه؟ فإن المغامرات فى سوق الأوراق المالية ، والمضاربات المجازفة والتهور الذى لازمه حتى بعد تقدمه فى السن ، كل أولئك سارت بأعماله فى طريق الانحلال والتدهور ، ولم يعد رجل الأعمال الأمين الواثق بنفسه ، المتشامخ ، سوى ممول عادى يرتجف لأى صعود أو هبوط فى السوق

غمغم الرجل العجوز وهو يمسك برأسه فى قنوط : « تباً لهذا الرهان اللعين ، لماذا لم يمت هذا الرجل ؟ إنه لم يزل فى الأربعين من عمره ، وسوف يستولى على آخر دانق أملكه ، فيتزوج وينعم بالحياة ويقامر فى السوق وسأرمقه بنظرة الشحاذ الحسود وأسمع منه نفس هذه الكلمات كل يوم « وأنا مدين لك بسعادة حياتى . دعنى أساعدك . » كلا ، هذا كثير للغاية ! الوسيلة الوحيدة للتخلص من الإفلاس والعار — هى أن يموت هذا الرجل .

وكانت الساعة وقتئذ قد دقت الثالثة صباحاً ، والمول يرهف السمع وقد نام جميع من فى المنزل ، ولم يكن يسمع سوى أنين الأشجار المتجمدة خارج النوافذ ...

أخذ من خزانته وهو يحاذر ألا يحدث صوتاً ، مفتاح ذلك الباب الذى لم يفتح منذ خمسة عشر عاماً

ثم تدثر بمعطفه وخرج من المنزل . كانت الحديقة حالكة الظلمة باردة ، والسماء تمطر ، والريح المحملة تعوى بشدة ولا تدع الأشجار تقر على قرار . ورغماً من أنه أنعم النظر فلم يستطع أن يتبين لا الأرض ولا التماثيل البيضاء ولا جناح الحديقة ولا الأشجار. وعند ما اقترب من جناح الحديقة نادى الحارس مرتين فلم يتلق أى جواب ، فلا ريب أن الحارس قد لجأ إلى مأوى يعصمه من رداءة الطقس وأنه يغط الآن فى النوم فى مكان ما بالمطبخ أو بمكان آخر

ففكر الرجل المجوز : « إذا واتتنى الشجاعة لتحقيق نيتى فستحوم الشبهة حول الحارس أولاً »

وجعل يتحسس فى الظلام درجات السلم والباب حتى دخل بهو جناح الحديقة فأخذ يتلمس طريقه فى ممر ضيق ، ثم أشعل عود ثقاب . لم يكن هناك أحد ، وإنما كان هناك سرير عار من الأغطية وموقد من الحديد مظلم قائم فى أحد الأركان . وكانت الأختام المطبوعة على الباب الذى يؤدى لحجرة السجين غير مفضوضة

وحينما نفدت أعواد الثقاب تطلع الرجل المجوز خلال النافذة الصغيرة وهو يرعد من القلق

كانت فى حجرة السجين شمعة ترسل ضوءاً خافتاً وكان السجين نفسه جالساً إلى المنضدة لا يرى منه سوى ظهره وشعر رأسه ويديه ، وقد تناثرت كتب مفتوحة فوق المنضدة والمقعدين وعلى البساط القريب من المنضدة

مرت خمس دقائق لم يتحرك السجين خلالها قط فقد علمته الخمس عشرة سنة أن يجلس جلوس الجماد فطرق المول النافذة بأصبعه لكن السجين لم يبد أية حركة . وعندئذ فض المول أختام الباب فى حذر ثم أولج المفتاح فى القفل الصدئ فخرجت منه أنة مبحوحة وصر الباب . وفى الحال توقع المول أن يسمع صرخة فزع ووقع أقدام ، لكن مضت ثلاث دقائق والهدوء شامل الحجرة كما كان من قبل فعقد العزم على الدخول

أمام المنضدة جلس رجل لا يشابه الرجل البشرى العادى فى شىء . كان هيكلاً عظميا مشدود الإهاب ذا شعر طويل معقوص كشعر المرأة ، ولحية كثة . وكان لون بشرته شاحباً تعلوه غبرة ، وخداه غائرين ، وظهره مستطيلاً ضيقاً ، ويده التى أراح فوقها رأسه الشعراء من شدة الهزال والضمور بحيث يبعث منظرها الألم فى النفس ، أو شعره يلتمع فيه بياض المشيب . وكان من المستحيل أن يصدق من ينظر إلى تحافة الشيخوخة البادية على الوجه أن صاحبه لم يزل فى الأربعين من عمره ، وعلى المنضدة ، أمام رأسه المائل ، وضعت رقعة من الورق عليها كتابة بخط دقيق

قال المول فى نفسه «يا للشيطان المسكين . إنه نائم ولا يبعد أنه يحلم بالمليونين . ليس على إلا أن آخذ هذا المخلوق نصف الميت وألقى به على الفراش وأكتم أنفاسه لحظة بالوسادة ، ولن يستطيع أدق فحص بعد ذلك أن يستدل على أنه مات ميتة غير طبيعية . لكن لنقرأ أولاً ما كتبه ها هنا »

تناول المول الرقعة من على المنضدة وقرأ « غداً فى الثانية عشرة ليلاً سأسترد حريتى وحقى فى مخالطة الناس ، ولكن قبل أن أغادر هذه الحجرة وأشاهد الشمس أرى من اللازم أن أقول لك بضع كلمات : إنى أقر لك أمام ضميرى التقى وأمام الله الذى يرانى أنى أحتقر الحرية ، والحياة ، والصحة ، وجميع ما تدعوه كتبك نعم الدنيا

« أمضيت الخمسة عشر عاماً وأنا عاكف على دراسة الحياة الدنيوية . والواقع أنني لم أكن أعرف العالم ولا الناس ، ولكن في كتبك تهلت سلافاً عطراً ، وشدوت الأغاني ، وصدت الظباء والوحوش في الغاب ، وعشقت النساء ... وكانت توافيني ليلاً حسان كأنهن سحب أثيرية ، قد أبدعتهن عبقرية شعرائك ، فيهمسن إليّ بقصص عجيبة تسكر رأسي . في كتبك صعدت قمتي البروز ومونت بلان ، ورأيت من ثمة مطلع الشمس في الصباح ومغربها عند الأصيل وقد خضبت بأرجوان الذهب السماء والبحر ورؤوس الجبال . رأيت من ثمة البرق يخفق فوق ويشق الغمام ؛ رأيت آجاماً خضراء ، وحقولاً غناء ، ومدائن فيحاء ، وأنهاراً دافقة ، وبحيرات خافقة ؛ سمعت غناء الحوريات وترنيم رب الرعاة على المزمار ؛ لمست أجنحة الملائكة الجميلة التي أتتني طائرة لتحدثني عن الله ...

« في كتبك ألفيت بنفسي في هوات سحيقة ، وأتيت بالمعجزات ، وأحرقت مدناً عن آخرها ، ودعوت إلى أديان جديدة ، وأخضعت أقطاراً بأكملها ...

« علمتني كتبك الحكمة . إن عصارة كل ما أبدعه الفكر الإنساني خلال الأجيال قد تجمعت في جمجمتي . وأنا واثق تماماً أني أكيس وأقدر منكم جميعاً

« بل وإني أيضاً لأحتقر كتبك وأحتقر جميع النعم الدنيوية والحكمة . كل شيء باطل وأفن وهمي خادع كالسراب . قد تكون متكبراً حكيماً جميلاً ، ومع ذلك يأتي الموت فيمحوك من على وجه الأرض كالحشرة ولا يبقى من ذريتك وماضيك وعباقرتك الخالدين إلا رماد يختلط بالأرض . أنت مجنون ضللت سواء السبل ، تحسب الزيف صدقاً والقبح حسناً . إنك لتعجب إن تدلت فجأة من الأشجار ضفادع وزواحف بدلاً من الثمار ، وإن فاحت من الورد رائحة حصان عرق مكدود . وهكذا أعجب لك أنا أيضاً أنت الذي بعت الآخرة بالدنيا ، لست أريد أن أفهمك

« ولكي أريك فعلاً مبلغ ازدرائي ما تعيش به ، فإني متنازل عن المليونين اللذين كنت أحلم بهما قديماً كما أحلم بالجنة ، فأصبحت أحتقرهما الآن . ولكي أجرد نفسي من حق فيهما ، سأخرج من هنا قبل الموعد المتفق عليه بخمس دقائق وبهذا ينقض الاتفاق »

« فلما أتم المول قراءة الرقعة وضعها على المنضدة وقبل رأس هذا الرجل الغريب ثم أجهش بالبكاء

خرج من الجناح ولم يشعر في أي وقت مضى ، حتى عقب خسائره الشنيعة ، بمثل هذا الاحتقار لنفسه . فلما بلغ المنزل تهالك على فراشه ، غير أن اضطرابه ودموعه نفرت عنه النوم مدة طويلة .

وفي صباح اليوم التالي أقبل إليه الحارس يعدو فأخبره أن الرجل الذي يقيم بالجناح شوهد يتسلق النافذة ويهبط منها إلى الحديقة ، ثم ذهب من البوابة واختفى . فتوجه المول لوقته إلى الجناح مع الخدم وأثبتوا فرار السجين . وتلافياً للتخرصات والإشاعات أخذوا ورقة التنازل من على المنضدة ، وعند عودته أغلق عليها خزانته .

محمد حسين هيكل

الوردة المهلكة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

انتهى المطاف بالشمس إلى الأفق الغربي وقد شملها الهدوء والوجوم والأسى بعد أن ولى عنها تيه الفتوة وزهو الشباب . ومضى شعاعها الشاحب يودع شرقاً مودعاً رمال الصحراء المتاخمة للعباسية موسماً وراءه للسمرة الزاحفة .

ولم يكن فى الطريق الذى يخترق الصحراء ـ فى تلك الساعة ـ سوى سيارة بيضاء صغيرة تسير على مهل ، كأن لا غاية لها سوى السير . ويسوقها شاب تدل نظرة عينيه المظلمتين على الملل وعدم الاكتراث .

وتقدمت السيارة فى الطريق حتى حاذت أبنية المصانع الجديدة التى تشغل مساحة واسعة من فضاء تلك الصحراء ، ثم وقفت أمام بناء صغير كتب على لوحة فى أعلى واجهته « مطعم وقهوة الزملاء » وكان البناء مكوناً من قسمين : واحد مسقف رصت به موائد الطعام الخشبية التى يتناول عليها الطعام عمال المصانع القريبة ، والآخر مكشوف معشوشب الأرض ، وضعت به الكراسى حول نافورة من ماء آسن أقيمت حولها عمد خشبية علقت برؤوسها الكلبهات .

ألقى الشاب نظرة على البناء وقد لاحت فى عينيه الأحلام وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه الممتلئتين ، وغادر السيارة . فبدت قامته الرشيقة وبذلته الأنيقة ، ودخل إلى القهوة ، واختار ركناً قصياً ، وكان المكان خالياً ساكناً ، لأنه لا تدب فيه الحياة عادة إلا بعد انصراف العمال فى المساء . فجلس يحتسى فنجاناً من القهوة ، والنادل على بعد منه يرمقه بنظرة ملؤها الإنكار والدهشة .

ولم تكن هذه أول مرة يهبط فيها إلى هذه القهوة التائهة فى الصحراء ، فقد زارها زيارة سعيدة لم تكن فى الحسبان منذ أمد غير قريب . وما دفعه إليها تلك المرة إلا الملل الراكد على نفسه التى شبعت من أهواء الدنيا وعانت من الفراغ مر العناء وتركته يتخبط حائراً ما بين اليادين والأزقة لا يهتدى إلى مستقر . وما عاج به إليها هذه المرة إلا ما طالع خياله من أطياف الذكريات الحلوة ...

وجلس يلقى على المكان نظرة تذكر وحنين ، ولم يكن يرى منظراً غريباً ، فإنه يذكر ولا شك تلك الأبنية العالية التى يتصاعد الدخان من أعاليها ويدوى قرع آلات فى داخلها ، وهذه الصحراء المترامية التى تنتهى شطآنها البعيدة إلى مآذن القاهرة المزية ، ولكن ماله يلتفت يمنة ويسرة ؟.. هل يفتقد منظراً يذكره ولا يجده ؟..

نعم . إن الصورة التى انتزعها رأسه من المكان

فى تلك الليلة القمراء ناقصة . . . ولا تنقص شيئاً تافهاً ، بل تنقص مدينة كاملة . . . مدينة الصفائح الغريبة . . . كانت تقع أمام القهوة مباشرة على بعد عشرة أمتار من مدخلها ، وكانت مبانيها أكواخاً من الصفائح التى علاها الصدأ ، تأوى رجالاً ونساء وأطفالاً ، وترعى فى عرصاتها المعز والكلاب . . . أين يا ترى هذه المدينة ؟ أم تراه اشتبه عليه الأمر؟ .

ولكى يقطع الشك باليقين نادى النادل وسأله وهو يشير بيده إلى الموضع الخلاء الذى أحدث ارتيابه :

— ألم تكن توجد هنا أكواخ من الصفائح ؟

فهز الغلام رأسه علامة الإيجاب وقال :

— بلى ، يا بك

— فأين ذهبت ؟

— هدمتها الحكومة

فقطب الشاب جبينه وسأله :

— متى . . . ولأى سبب ؟

— منذ ثلاثة أشهر ، بعد أن تأكد البوليس من أن ساكنيها من اللصوص والقتلة

لم يكن فى الخبر ما يثير الدهشة ، ولكنه ذكر شخصية عزيزة فقال :

كان يوجد هنا رجل مغن يدعى أبو لبه . . . أو أبو رنه لا أذكر . . . ألا تعلم أين هو ؟

فتفكر الغلام دقيقة ثم قال :

— لعله أبو سنه يا بك

— أظنه هو ، كان يغنى غناء جميلاً وينشد إنشاداً ساحراً . . .

— نعم هو يا بك . ولكنه شنق وا أسفاه !

وانزعج الشاب وسأله :

— أتقول إنه شنق ؟

— نعم شنق بغير شك

— ولماذا شنق ؟

— لسبب تافه جداً

فاستولت الدهشة على الشاب ويسأله :

— كيف يشنق لسبب تافه . . . ماذا فعل ؟

فقال الغلام بهدوء :

— قتل . . .

فابتسم الشاب بالرغم من انزعاجه وقال :

— ولكن ليس هذا بالسبب التافه

— قتل بغيا . . .

ولم يستطع الغلام أن يتم حديثه ، لأنه قطعه عليه دخول جماعة من العمال ونداء المعلم له فحيا الشاب وانصرف إلى عمله . . .

لقد وقعت أحداث غريبة منذ زيارته الأولى لهذه القهوة . . . دمرت مدينة ، وتشتت أهلها ، وشنق رجل كانت حنجرته تنفث سحراً وبهجة ، فما أتعس مجيئه هذه الليلة ! جاء يطلب لهواً ومسرة فوجد خراباً وموتاً !

ولبث كئيباً حزيناً ، وراح يفكر فى زيارته الأولى تلك الليلة القمراء السعيدة . . .

كان فى مساء تلك الليلة جالساً فى سانت جيمس يشارب جماعة من صحبه كما هى عادته كل مساء ، وقد تركوا الحانة فى الساعة العاشرة ، ورأى بعضهم أن يمضوا الليل فى صالة رقص أو غناء أو نساء ، ولكنه لم يجد من حواسه ميلاً إلى تلك المتع .

كان ضيق الصدر من طول ما فعل به الملل والفراغ ، وكان يعانى شبعاً ثقيلاً صرف هواه عن الدنيا جميعاً فأمسى الرقص والغناء والنساء ألفاظاً لا معنى لها ؛ وانقلب جسد الأهواء الفاتن فى عينيه

جثة هامدة ، فودع صحبه وتركهم يذهبون

وتلفت يمنة ويسرة فى حيرة ... إلى أين يذهب ؟ ولم ينقذه من حيرته إغراء ... فترك لله ووحدته وسكره ...

ثم استقل سيارته الصغيرة وانطلق بها على غير هدى، وساقه التخبط إلى العباسية، ودفعته العباسية إلى صحرائها الشرقية . ولفتت ناظريه — فى الطريق الصحراوى الملتوى — أنوار خافتة تنبعث من القهوة المنعزلة ، فهدأ من سرعة السيارة ونظر صوبها فسره منظر الجالسين يتسامرون ويلعبون النرد والورق ، وحمل الهواء إلى أنفه رائحة « التمباك المعسل » فتسربت إلى مخه وأطربت أعصاب رأسه ، فانقشع عنه كابوس السقم ، وأدار السيارة إلى أمام مدينة الصفائح ووقف ، وحسب أن جلسة فى هذه القهوة و نَفَساً من هذه (الجوزة) يساويان نعيم الدنيا الذى أنهك قواه وأضنى قلبه

ولفت شخصه الغريب أنظار الجالسين ولكنه لم يجد حرجاً ولم يستشعر خجلاً إذ أخفت الخمر عن عينيه نظرات الآخرين ، وقصد إلى ركن خال واطمأن إلى كرسى ، وطلب جوزة ... وكان القمر بدراً والسماء صافية ، كأنها تعرت تستحم فى نوره البهى ، فبهره سحر النور وجمال الليل وفتنة الصحراء الفاتنة وكأنه يرى القمر لأول مرة ، بل لعله كان يراه لأول مرة حقا ، لأنه كان فى العادة يمر على محاسن الكون ومفاتنه بعينى أعمى وأذنى أصم . أما تلك الليلة — والخمر فى رأسه و (الجوزة) فى فمه — فقد نظر ، وقلب وجهه الذاهل فى أقطار السماء والفضاء ، وخال الأنوار الهادئة ترقص طرباً والقمر الساطع ينشد نشيداً ترتله السموات والأرض ، وأحس كأنه معلق بأطراف النور الفضى كمن يتقلب على بركة من الزئبق.

أى حسن ... ! وأى شعور ... ! فى تلك الساعة السعيدة نسى مرضه العضال وحزنه الثقيل والملل الجاثم على صدره ، وذهب عنه شبحه الزمن ، وأحس بجدة وبعث ومتعة وحب. فأنشد الصامت فى أذنيه، وابتسم العابث لعينيه ، ولولا الحياء لاندفع يرقص ويغنى وينشد طرباً وفرحاً . وبالغ صاحب القهوة فى إكرامه والترحيب به، وأحضر له (الجوزة) بنفسه وهو يقول بتودد : « آنست وشرفت » . وكان شيخاً فى الستين ، قصير القامة ، بطينا ، ضخم الوجه والرقبة ، فلم يسع دانش — اسم الشاب — إلا أن يشكره

وأراد الرجل أن يبالغ فى إكرامه فقال :

— أتحب يا بك أن تسمع غناء بلدينا ؟

فسر دانش وقال لنفسه ليلة قمراء وخمر وجوزة وغناء بلدى ! يالها من ليلة سعيدة حقاً ... وقال بحماس للرجل :

— نعم ... نعم ... أين المغنى ؟

فنادى الرجل :

— أبا سنة ... تعال

وتقدم من بين صفوف الجالسين شاب طويل القامة عريض المنكبين ، لم يجل نور القمر الساحب قسمات وجهه ، وأسدل ظلا على أسماله البالية

دنا من صاحب القهوة وقال :

— نعم

فقال له الرجل :

— أقعد يا عم ... يريد البك أن يسمع غناءك

وقال دانش :

— نعم ... أسمعنا ... أسمعنا

ثم التفت إلى صاحب القهوة وقال :

— يا معلم ... هات « للأستاذ » جوزة

وانبسطت أسارير الشاب فرفع يده إلى رأسه تحية وتربع جالساً على الأرض أمام البك ، وسعل مرات متوالية يسلك حنجرته ، ثم أسند رأسه إلى كفه ومضى يغنى (ليالى) فى صوت جميل ظن دانش فى نشوته أنه أجمل من أصوات الحور فى الجنان، ثم أنشد :

بكره وبعده وبعد اللي ورا بعده

وإن غاب حبيبك مالكشي فى البلد بعده

وكان رأسه يهتز وجسمه يتمايل ، وكان جميعه فى حركة وجدانية تمثيلية غريبة . وكان صوته يتهدج ويتوجع ، يعلو تارة حتى يملأ الفضاء، ويخفت أخرى حتى ينفذ إلى أعماق القلب ، وما انتهى من إنشاده حتى سمعت آهات الإعجاب من كل فم ، وكان الشاب أول المعجبين، وغلبته النشوة والطرب فطلب لكل واحد من الجالسين (جوزة) وصاح بالمغنى :

— لا أسكت الله لك صوتاً ... أسمعنا موالاً آخر ...

فهز الرجل رأسه مختالاً فخوراً ووضع يسراه على أذنه ، ويمناه على الجوزة . وأنشد :

بيني وبين الحبايب جبل عال وتل حشيش

وبحر خمرة ونفسي فى النبيذ ولا فيش

ولما انتهى المغنى من إنشاده بلغ الفرح بنفس دانش مبلغاً ظن أنه لن يذوق الملل معه أبداً ، وأحس بالرضاء والغبطة ، وأفعم قلبه بعاطفة سعادة وخير فود لو يستطيع أن يغمر كل محزون بفيض من سعادته ، ومال بقوة قاهرة إلى مكافأة الرجل الذى مس روحه بنفثة من سحر صوته ، فمد يده إلى محفظته ووجد بها بضعة قروش وورقة من ذات العشرة جنيهات ، فأعطى القروش إلى صاحب القهوة ثم نظر إلى المغنى ملياً ووضع الورقة فى يده وهو يقول :

— هذه لك ...

لم يداخله التردد مطلقاً ، وما كانت ثمت قوة فى الوجود تستطيع أن تمنعه من المنح والعطاء تلك الساعة ، أما الرجل فسهم ووجم وأدنى الورقة من نور المصباح وتأملها بإنكار ، ولمح الورقة فى يده أحد الجالسين فاقترب منه ونظر إليها لحظة ثم قال بلهجة خبير :

« ورقة قديمة من ذات العشرة قروش ... كانت متداولة أيام السلطة »

فتضاحك دانش وقال للرجل بصوت سمعه كثيرون ممن حوله :

— جزاك الله على ما أسعدتنى خيراً ... هذه ورقة من ذات العشرة جنيهات قد تراها بين يديك ثروة عظيمة وأراها أنا شيئاً تافهاً إلى ما أحسست به من السعادة ... السلام عليكم يا سادة ...

على أنه رأى منظراً عجباً — زاد من مسرته — قبل أن يغادر القهوة

رأى أبا سنة يهب واقفاً فزعاً ، وسمع همساً تتناقله الشفاه ، ثم علا ضجيج ، ثم ساد صمت ثقيل ، وقد كفت كل يد عن اللعب وكل فم عن التدخين والتقت الأبصار جميعاً عند المغنى السعيد

ولبس طربوشه وسار إلى سيارته وقلبه يكاد يطير من الفرح بعد أن نفض عنه راكد السقم والملل ، وعاد إلى المدينة ، ثم ألهته الحياة عن الصحراء

وقهوة الصحراء وأبي سنة حتى وجد نفسه فيها هذا المساء

فما أشد ما نزل بالدنيا من تغير ! اندثرت مدينة الصفائح العامرة ... وفتك الحبل بعنق أبي سنة الجميل وحنجرته الذهبية ... يا للعجب ! كان أبو سنة مطرباً فكيف صار قاتلاً ... ؟ ووجد رغبة صادقة في السؤال والتحرى عنه ، وكان صاحب القهوة جالساً بمكانه المعهود عند مدخل المطعم ، فأشار إليه وناداه قائلاً : « يا معلم » وحدق الرجل في مصدر الصوت وهو يضيق عينيه ، ثم سار إليه ، فلما دنا من صاحبه ورأى هيئته المميزة ابتسمت أساريره وارتفعت يده إلى جبينه بالسلام ، ولكن لم يبد عليه أنه عرفه أو تذكره ، وطلب إليه دانش أن يجلس ثم قال له :

— أراك لا تذكرني يا معلم

فحدجه الرجل بنظرة إمعان وارتياب وتمتم وعلى فمه العريض ابتسامة حائرة :

— أهلاً وسهلاً ...

فأردف دانش :

— ألا تذكر تلك الليلة القمراء ؟ ... والمغنى أبا سنة ؟... وموال بكره وبعده ؟ كم مضى على تلك الليلة ؟ ... ثمانية أشهر أو يزيد ، ألا تذكر ؟

ونظر إليه الرجل نظرة غريبة ، كان الشاب يتوقع أن يقرأ فيها الدهشة والترحاب ، ولكنه وجدها جامدة ثقيلة ...

— ألا تذكر يا معلم ؟...

فهز الرجل رأسه وقال :

— بلى ، أذكر يا بك

— سمعت خبراً غريباً مزعجاً ... هل حقاً شنق أبو سنة ؟

— نعم شنق الرجل التعس

— وكيف شنق ؟

— أتحب أن تعرف يا بك ؟

— طبعاً يا معلم

فقال الرجل بصوت غليظ :

— ألا تذكر الثروة التي رميته بها في تلك الليلة ؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب وقد داخله قلق للهجة الرجل ، أما المعلم فاستطرد قائلاً : « في تلك الليلة شاهدت وشاهد جميع الزبائن منظراً عجباً ، فعلى أثر ذهابك انتبذ أبو سنة مكاناً خالياً وجلس ويده تمسك بالورقة الثمينة ، ولم تكن عادته أن يجلس صامتاً فهو إما يضاحك القوم أو يغنيهم وينشدهم ؛ أما في تلك الساعة الرهيبة فقد انكمش مضطرباً وجعل يختلس من الجالسين نظرات الريبة والقلق ويمعن في الورقة نظراً يتنازعه الشك واليقين والذعر والأمل . ودنوت منه وطلبت إليه أن يطلعني على الورقة فأطلعني عليها وهو قابض على طرفها فعرفتها وأمنت على قولك له دهشاً متعجباً ، وقلت له لقد أتتك ثروة واسعة . وكان محط الأنظار ومثار الاهتمام والهمس ، وكنت أتوقع أن يغادر المكان سريعاً ولكنه ظل ذاهلاً يتناوب على عينيه نور فرح مخيف والتماع ذعر مريب ؛ ولعله كان في حيرة من أمره لا يدري أين يذهب ، فهو آمن وسط الجميع ولكن أنى له الأمان إذا انفرد في الطريق أو آوى إلى كوخه في مدينة الصفائح ؟ ومدينة الصفائح لا يعرف أهلوها من العملة سوى الملاليم ، ولا يغمض لها جفن إذا علمت أن بين حدودها ورقة من ذات العشرة جنيهات ، فما العمل ؟ بات خائفاً مذعوراً وأمسى الجميع أعداءه

وسكت الرجل دقيقة ثم رمق الشاب بعينين أحرق الاحمرار أشفارهما واستطرد :

— وأغلب الظن أن القلق أثار أعصابه وحرضه على الاستهتار ، فما كان منه إلا أن قام بغتة وقال بصوت مبحوح : « السلام عليكم يا إخوان » وغادر القهوة على عجل ، ولكنه بدلاً من أن يسير إلى مدينة الصفائح حيث زوجه وأسرته انحرف إلى اليمين وأوسع الخطى حتى ابتلعته الظلمة . وأحدث انحرافه دهشة فتبعه أحد الرفاق وغاب زمناً يسيراً ثم كر راجعاً وهو يصيح ضاحكا : « ألا تعلمون .. إن الرجل المعتوه يعدو بقوة كأنما يطارده مطارد عنيف » وأحدثت عبارة الرجل عاصفة من الضحك والسخر واللعن ، وهكذا غادرنا أبو سنة ...

وذاع الخبر حتى بلغ مدينة الصفائح ، فجاءت أسرة المغنى على عجل ، وتبعها قوم كثيرون ممن يشتغلون بجمع الأعقاب ولم الورق القذر وسألوا عن جلية الأمر. فلما أن صح لديهم الخبر انعقدت ألسنتهم من الدهشة ، وظنوا أن المغنى ذهب ليدفن كنزه فى مكان أمين فقعدوا ينتظرون ، وطال بهم الانتظار على غير جدوى ، فجزع الأكثرون وتفرقوا ولم يبق إلا أفراد أسرته ، ولبثوا طويلاً يترقبون ولكن أبا سنة لم يعد

وهنا غلب السعال على « المعلم » فمنعه عن إتمام حديثه ، وانتظر دانش حتى رد إليه النفس واستحثه بنظرة عينيه القلقتين فاستطرد الرجل :

— كلا لم يعد أبو سنة ... وما كان ليعود ... لقد هجر أسرته ومدينته وصحبه إلى الأبد . باعهم جميعاً بتلك الورقة السحرية ، ولما طالت غيبته رثى بعض إخوانه لحال أسرته ؛ فخرج فى طلبه والبحث عنه . ومن ذلك اليوم ترامت إلينا أخبار عجيبة ، فقيل إن المغنى التائه قادته قدماه إلى الأزبكية ، وإن بغيا وقعت فى هواه وأوقعته فى شراكها . ثم قيل إنه اشتغل بالغناء فى قهوة بلدية بالأحياء الموبوءة ، وأخذ الكثيرون يتحدثون عنه بلغة الأساطير والخرافات فقالوا إن الدنيا تبسم له ، وإنها فى إقبال عليه يتزايد يوماً بعد يوم ، فالأموال تتقاطر عليه من كل يد ، والنساء يتهافتن عليه من كل باب ، وإنه بطر وطغى وفرض السطوة وجبى الأتاوة ونشر الرعب ...

كانت أخبارا غريبة يعز تصديقها ، ولكنها فتنت أخيلة شباب مدينة الصفائح ، وأثارت الطمع فى قلوبهم ، فلحق به نفر منهم إلى مهاوى الفجور ومدوا إليه يد الأخوة وقاسموه الخير والشر فكانوا سواعده إلى الإثم والفجور والإرهاب ...

ولبثت تلك الحياة ما لبثت ، ثم انقطعت بغتة على أسوأ حال ، وقيل فى ذلك إن الرجل رجع يوماً إلى مخدع عشيقة له على غير موعد فوجدها بين يدى أحد أتباعه ، فكبر عليه الأمر وأعماه الغضب فاستل خنجره وقتل به الاثنين ، وقبض عليه وعلى عصابته وامتدت يد القانون إلى مدينة الصفائح منبت ذلك الشر ، وانتهى الأمر فشنق أبو سنة ، وسجن أتباعه وهدمت المدينة المظلومة . وسبحان من له الدوام يا بك ..!

كان دانش يصغى إلى محدثه فى ذهول ، وسمعه يختم حديثه بلهجة مريرة ساخطة فسرت فى جسمه هزة عنيفة ، ولم تعد أعصابه تحتمل الجلوس فقام منزعجاً وغادر القهوة دون أن يلقى عليها نظرة وداع . .

كان كئيباً منقبض الصدر

وكان يتذكر الليلة السعيدة حين غلبته نشوة الفرح فغمر بفيضه بعض القلوب ، ويتعجب ! كان ليلتها سعيداً فرحاً ينشد السعادة للجميع فكيف انقلب غرضه عليه ؟ . . . كيف خانه الهدف فدمر مدينة وشرد أهلها ؟ ... وا أسفاه ! ...

نجيب محفوظ

تزوجت جاسوسا

(حصلت هذه القصة على جائزة مائة جنيه)
عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

[... ماذا كان في مقدورها أن تفعل بعد أن عرفت الحقيقة كلها فيما يتصل بأمر هذا الرجل ومع ذلك ازدادت له حبا ؟! ...]

أظن أن هذه القصة يجب أن تبدأ في البلدة الصغيرة بمقاطعة إسكس حيث عشت أنا وأنطون قبل أن نتزوج :

لم يكن هناك ما يميز هذه البلدة — التي أسميها ليتون — عن ألف مكان آخر مشابه لها ، إلا وجود الثكنات العسكرية على مسافة منها تقرب من ميل واحد . وكانت هذه الثكنات مؤلفة من صفوف طويلة من المباني الخشبية ، أمامها ميدان فسيح للعرض ، كان أهل البلدة يقصدون إليه في ساعات بعد الظهر من أيام الآحاد ؛ وفيما عدا هذا وعدا الجنود اللابسي الخاكي المتفرقين هنا وهناك لم يكن للثكنات في حياتنا من شأن يذكر !

كنت أنا وأنطون نعيش في حي واحد من البلدة — هو الحي القديم — حيث كان أهلي يقيمون في البيت الكبير القديم الذي بناه جدي الأكبر عندما اتخذ هذه البلدة مقاماً له .

كنت في أيامي الأولى ألعب مع فيليب استاو الصغير ، وأذهب معه إلى المدرسة وأداعبه قليلاً ، وكان فيليب يعيش في البيت المقابل لبيتنا ، وأظن أنه لو لم يجئ الدكتور ماير بامرأته وابنه إلى ليتون ، وأنا في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، لكنت أنا وفيليب قد كبرنا معاً وقد تزوج أحدنا من الآخر ، ولكن بعد أن حل أنطون في البلدة ، علمت أنه لن يكون هناك أحد سواه من نصيبي !

وقد اعترف كل إنسان بأن أسرة « ماير » قوم طيبون ، حتى وإن كانت لهم في حياتهم طرق أجنبية غريبة . لقد كانوا ألماناً ! وفي حين أن أنطون نفسه قد ولد في هذه البلاد : كان أبواه لا يزالان يتكلمان لغتهما الألمانية ويذكران على الدوام وطنهما . فلم يكن غريباً أن ينشأ الفتى وهو يعد نفسه ألمانياً أكثر منه انجليزياً !

ولقد ذهب معنا إلى المدرسة ، ولكنه لم يكد يبلغ السن التي تسمح بإرساله إلى الخارج حتى أرسله أبوه إلى ألمانيا ليتم ثقافته فيها . وقد قال الدكتور ماير :

« ليس في هذه البلاد مكان يستطيع الرجل الفني أن يحصل فيه على ما يريد من التجارب ، فلكي يصبح أنطون مهندساً ماهراً كما يجب أن يكون ، لا بد من أن يذهب إلى ألمانيا لإتمام تعليمه » .

وقد امتعضت أمي قليلاً عندما سمعت هذا الكلام وقالت فيما بعد :

« يلوح لي أنهم يظنون أن هذه البلاد صالحة

بالقدر الكافى لتكوين ثروتهم فقط . لقد أصبحت أشعر بالتعب من سماع الحديث عن الوطن طوال هذا الوقت . فإذا كانوا يحبون وطنهم هذا الحب فلماذا جاءوا إلى هنا ؟ »

ولكن لم يكن أحد فى الواقع يستاء من أقوال الدكتور . فقد كان كل إنسان يعرف ما انطوى عليه قلب هذا الطبيب من الشفقة ، وكيف يلبى راضياً نداء الواجب الإنسانى فى أشد الليالى سقيماً فيذهب لإسعاف المرضى والمصابين — حتى أشدهم فقراً — وهو يعلم جد العلم أنه لن ينال بنساً واحداً جزاء عمله !

كذلك كان أنطون على مثل أخلاق أبيه فكان كريماً لأقصى حدود الكرم ، على الرغم مما كان متصفاً به صبياً من إهمال وعدم اكتراث ومرح صبيانى ، وكان أنطون فى تلك الأيام دائماً منشرح الصدر طروباً ، وكان طويل القامة أسمر اللون فيه نوع من النشاط العصبى أشبه ما يكون بالسهم المشدود فى القوس مهيئاً للانطلاق

وكنت أعرف أننى وأنطون نؤلف زوجاً جميل المنظر ، فلقد كنت بيضاء بقدر ما هو أسمر ، وكان شعرى رمادياً يضرب إلى البياض ، ولى عينان زرقاوان كعيون أسرة أبى ولى قامة أمى المشوقة . كذلك كان اسمى هو اسم أمى مارى إلين ، وكان كل إنسان آخر يختصر هذا الاسم فيدعونى مارى دون أن يذكر اللقب ، ولكن أنطون كان هو وحده الذى يدعونى باسمى كاملاً ، وكان صوته العذب يضفى على الاسمين معاً نغمة موسيقية حتى ليصبح نطقه بهما أشبه بالغناء

وكان صوته رقيقاً حين نطق باسمى فى الليلة الأخيرة قبل سفره إلى ألمانيا ، وكان واقفاً إلى جنبى فى غرفة مكتب أبيه الضئيلة النور ، وقد تسربنا إليها لنقضى لحظة بعيدين عن الاجتماع الذى أعده أصدقاؤه لوداعه ، قال :

— إنك لآية فى الجمال يا مارى إيلين ، حتى لأتمنى لو لم أكن تاركاً هذه البلاد

فأمسكت بشدة بحافة المكتب ورأيت محاولة أن أقاوم تيار الوحشة والكآبة الذى غمرنى على حين فجأة وقلت :

— وإنى كذلك لأتمنى ألا تبرح هذه البلاد .

فلم يكد يسمع هذه الكلمات حتى جمعنى بين ساعديه ، والتقى فمه الصغير بفمى على قبلة سريعة حارة غمرت وجهينا جميعاً بحمرة الخجل ، وقال أنطون

— إنك لتعلمين يا مارى إيلين أننى سأعود ثانية إلى هذه البلاد ، فماذا تريدين أن أحضر لك معى ؟

وشعرت من وراء هذه الكلمات التى حاول فيها أن يسترد مظهر الانشراح والبهجة عاطفة انفعال بعيدة الغور ... وقد أجبته بقولى :

— لا أريد أن تحضر لى إلا نفسك

ولكن هذا الذى طلبته هو الذى عرف قلبى آخر الأمر عن يقين مُر أنه الشىء الوحيد الذى لم يكن فى مقدوره أن يعيده إلى . نعم إنه أعاد إلى جسمه المستقيم الجامع صفات الرجولة ، مصحوباً بالثقة التى ولدتها فى نفسه تجارب خمس سنوات فى الخارج . ولكن الفتى الذى قبلته تلك الليلة فى غرفة مكتب أبى لم يعد إلى قط

تزوجت من أنطون بعد شهر واحد من عودته ، وكان فيليب ستاو شاهد زواجنا ، وكانت بعض رفيقاتى اللواتى نشأت معهن وصائف العروس . وكانت حفلة الزفاف جميلة . وبعد انقضاء شهر العسل

الباخرة ، وقد ألح صحابنا على أن يغمرونى أنا وأنطون بأوراق الاحتفالات الملونة من أشرطة طويلة إلى قصاصات دقيقة ، وعندما حيتهم تحية الوداع من فوق ظهر السفينة كنت محملة بكمية كبيرة من هذه الأوراق

قبل أنطون وظيفة مهندس مساعد عند مقاول يشتغل ببناء خزان فى مصر

وفى سوتمبتون التقينا على غير انتظار ببعض الأصدقاء الذين ابتهجوا برؤيتنا ابتهاجنا برؤيتهم ، واحتفلنا باجتماعنا احتفالاً بهيجاً قبل أن نركب

لقد كنا ننظر بتبصر إلى كل شىء فى هذه الحياة الحرة الفنية التى توافرت لنا بعد أجيال من الحيطة والحذر المفلح . وقد ألقيت فى ذات مرة نظرة خاطفة على ضخامة ميراث بلادنا العظيمة وذلك عند ما أبدى أنطون ، على أثر استقرارنا فى بيتنا

الجديد ، ملاحظة خفيفة فيها شيء من الحط بمكانة انجلترا ولقد ثرت عند ذلك دفاعاً عن بلادى فقلت فى حماسة :

« إن كون انجلترا تختلف عن ألمانيا لا يعنى أنها تقل عنها عظمة وخطراً ، إننا آخر الأمر إنجليز ، ونحن لا نريد أن نقلد عادات غيرنا من الأمم »

ولا بد أن يكون وجهى قد غمرته حمرة اليقين الذى اندفع تياره فجأة إلى نفسى ، فقد أمسك أنطون بوجهى بين كفيه المداعبتين وقال سائلاً :

— أرجو ألا تكونى حقاً غاضبة منى من جراء أمر غامض كهذا ؟

لا... لم يكن لى أن أغضب منه فقد كنت أعلم حتى فى ذلك الوقت أنه لم تتهيأ له قط الفرصة ليشعر بمثل ما أشعر به ... وليعرف معنى أن يكون الإنسان بريطانيا . فهو منذ بدأ يفهم ما يقال أمامه كان دائماً يسمع أمه وأباه يتحدثان إليه عن البلاد الأخرى التى لا يزالان يتعلقان بها ، وكان يتكلم لغة تلك البلاد وقرأ آدابها ... فهل من العجب حتى وإن كان أنطون قد ولد فى انجلترا ، أن يكون ولاؤه الوطنى موزعاً على هذه الصورة الوثيقة ؟

ولكن لم يكن لى متسع من الوقت للتفكير فى مثل هذه الأمور حتى لو أننى أردت ذلك ، فقد كانت حياة الزواج التى دخلتها حياة جديدة مثيرة : فهذه الصحراء الواسعة الناصعة البياض تتراءى أمام عينى تبدو فيها عن بعد التلال المتناثرة . ولقد أحببت ما فى هذا المنظر من غرابة . ثم جاء دور الاهتمام بتحويل الكوخ الخشن البناء إلى شبه بيت يصلح للسكنى تزينه الستائر والصور ولا يخوى من الأثاث إلا أقل قدر يكفى لتوفير الراحة الضرورية ، إذ علمت أن المهندسين يندر أن يقيموا فى مكان واحد مدة طويلة تسمح لهم بالاستقرار

وقد قال لى أنطون مازحاً :

— من المحتمل ألا يكون لك أبداً بيت كبير ما دمت متزوجة منى ، هذا إلا إذا كان فى وسعك أن تنقلى ذلك البيت معنا حيثما ذهبنا .

وفى الحق أن المهندسين ليسوا بالأزواج الثابتين على أننى لم أكترث لنوع الحياة التى أحياها فإنى لأظن أننى أستطيع أن أعيش فى حقل ربنى وأن أشعر بالسعادة التامة ما دام أنطون معى .

وبعد أن مضى على زواجنا مايقرب من العام شعرت بحادث مفرح كان لا بد لى من أن أشاطره خبره

ولقد عدت من مكتب طبيب الشركة مساء ذلك اليوم الذى شعرت فيه بهذا الحادث ، وأنا واثقة آخر الأمر من صدق ما شعرت به ، وكدت لا أستطيع الانتظار حتى يعود أنطون من عمله لأخبره بأن ما رجوناه قد تحقق . فوقفت السيارة أمام البيت وبدأت أصعد الممر الموصل إلى الباب قبل أن ألاحظ الرجل الواقف أمام العتبة . وكان رجلاً كبير الجسم له وجه حليق لا يتبين الإنسان فى تقاسيمه معنى من المعانى ، فهو أشبه بوجوه ألف رجل سواه من أمثاله لولا عيناه ، فهما عينان جامدتان زرقاوان باهتتا الزرقة تشبهان قطعتين من الجليد بين بقية تقاسيم وجهه العادية . ولم ألبث حين رأيت ذلك الوجه أن أيقنت أننى رأيت مثل هاتين العينين من قبل فى مكان ما . ولقد ضايقتنى

هذه الذكرى وأجهدت رأسي طوال المدة التي أجبته فيها على سؤاله بقولي :

— لم يعد زوجي إلى البيت بعد ، ومن المحتمل أن تجده في مكتب المقاول عند الخزان

فشكرني الرجل وكان صوته مثل وجهه خالياً من أي معنى ، ودخلت إلى البيت وقد كدت أنسى هذا الرجل لتفكيري في سعادتي الشخصية التي لا تزال سراً لم يطلع عليه أحد . ولما بدلت ملابسي استعداداً للعشاء قررت في نفسي ألا أطالع أنطون بالنبأ السعيد إلا بعد الانتهاء من الطعام ، فمثل هذه الأنباء لا يجوز أن تطوى خلال ازدراد اللقمات

ولكن الذي حدث بعد ذلك أخر إفضائي بالسر وقتاً أطول مما قدرت . لأنني عند ما لحقت بأنطون في غرفة جلوسنا الصغيرة البهجة ، سمعت وقع أقدام تصعد الممر الموصل إلى باب البيت ، فوقف هذا الصوت الكلمات التي كدت أنطق بها

وقال أنطون وهو ذاهب ليفتح الباب

لعله أحد موظفي المكتب

ثم فتح الباب ، وبعد أن لفظ بعبارة نصف مختنقة خطا إلى خارج البيت

ولكنني تبينت في لمحة قصيرة أن القادم هو الرجل نفسه الذي رأيته أمام البيت بعد ظهر ذلك اليوم . وعاد أنطون بعد لحظة ليخبرني أنه ذاهب في مهمة يغيب فيها بضع ساعات . ثم قال :

— يحسن يا مارى إيلين ألا تسهري في انتظاري

ورأيت كيف استولى الجمود والعبوس على وجهه الأسمر فجأة ، ثم قبلني قبلة قصيرة وأسرع إلى خارج الدار ، وسمعت وأنا قابعة في ركن الصفة صوت سيارة تبتعد ، وقد حاولت أن أقاوم شعور الخوف الشديد الذي استولى على حتى لكأنه يقبض على بيدين من حديد . وكان مجيء هذا الرجل قد فتح على صورة ما باباً خلفياً لجزع لم يكن في مقدوري أن أسوره بالألفاظ الكلامية

على أنني حين تأهبت للنوم قلت في نفسي إنني أهتم لأمر فارغ ، ورأيت أن أؤجل ما استطعت التأجيل التفكير في هذا الأمر مؤملة عبثاً في أن أذكر أين رأيت هذا الرجل قبل . على أنه من الجائز أن أكون واهمة في جميع مخاوفي فقد سمعت أن النساء اللواتي في مثل حالي كثيراً ما يشعرن بإحساسات غريبة

وعادت ذكرى الحادث السعيد الذي أريد أن أشاطر أنطون أنباءه فاستولت على رأسي فكأنها رداء دافئ واسع لفقته حول جسمي عند ما استغرقت في النوم ، وقلت في نفسي إنه متى عاد إلى البيت أخبرته ...

وكأنني في الأشهر التي تلت ذلك اليوم قد استحلت إلى جسم منسوج من خيوط من الزجاج ، فقد كان أنطون شديد العناية بأمري ، يحذرني من المشي الطويل ، ويرشدني إلى ما يصح أن أفعله وما لا يصح . حتى لقد ضحكت من رقته المتناهية وقلت له :

— يا لله يا أنطون ! إنك لتكاد تحسب أن لم تحمل امرأة قط من قبلي ؟

فكانت ابتسامته الرقيقة خير جواب لما توهمه طيشاً مني ، على أن النظرة التي بدت في عينيه كانت جادة حين قال :

— ذلك أن أحداً لم يلد مثل ولدنا ، فهل

ترين أن ننشئه طبيباً مثل جده ...

فقد كنا أنا وأنطون واثقين من أن وليدنا سيكون ذكراً ، ثم مضى يقول :

— وسنرسله أيضاً إلى ألمانيا لإتمام ثقافته كما فعلت أنا !

فقلت قبل أن أدرك معنى ما أقول :

— آه . لا . إن أولادنا سيكونون بريطانيين يا أنطون . وأنا أريد أن يذهبوا إلى المدارس الإنجليزية وإني لأظن أن شأنك كان غير شأن أبنائنا . صحيح أن أبويك جاءا من ألمانيا ولكن ألا ترى الفارق بين أمرهما وبين أمرنا فيما يتصل بأبنائنا ؟

على أنني لم ألبث أن تبينت أنني كنت على حق في كلماتي هذه .

ولقد ضحك أنطون لما أبديت من مظهر الجد والاهتمام . وعلى حين فجأة فكرت يائسة في الفتى الذي قبلته قبلة الوداع منذ أعوام قليلة . فماذا أصابه في السنوات التي قضاها في الخارج ففرق بيني وبينه ؟ فقد أدركت في هذه اللحظة كيف استحال أنطون استحالة تامة إلى إنسان آخر لم أكن لأستطيع أن أفهمه في بعض الأحيان !

على أن هذا الغموض مع ذلك لم يكن إلا وقتياً فلم يلبث أنطون أن ترك لهجة الجد التي كان يحدثني بها ، واستحال مرة أخرى إلى الرجل الذي أحببته وقال :

« إن أمامنا متسعاً في الوقت للتفكير في هذا كله يا عزيزتي مارى إيلين ، أما الآن فيجب النظر في خير الوسائل التي أستطيع استخدامها للعناية بك ولد ابننا في الشهر التالي ، وجاء طفلاً قوياً صحيح الجسم له شعر أبيه الأسود وعيناه ، وكذلك كان وجهه كوجه أبيه مستديراً وله جميع ملامحه !

وقال الطبيب ، ولم يكن في قوله ما يزيدني علماً بما أراه بعيني :

« إن ولدكما ولد لطيف ... فترى ماذا يكون في المستقبل ... لعله يصير رئيساً للوزارة ؟ ! »

والحق أنني رأيت من النظرة الأولى أن ولدي تونى الصغير كان طفلاً مدهشاً لم يولد مثله من قبل

على أن الطبيب قد ضحك لما جاء في عبارته من مزاح ، ولكن أنطون نظر طويلاً إلى وجه ابنه الصغير قبل أن يجيب الطبيب بقوله :

— ولم لا ؟

وكأن أنطون قد وجد في اللحظات القصيرة التي نظر فيها إلى وجه ابنه الجواب لأمر كان يزعجه منذ عهد طويل ؛ ثم رأيت على فكيه خطوطاً جديدة تدل على الحزم حين أردف جملته الأولى بقوله :

— إنه أول كل شيء رجل انجليزي !

وفي اليوم التالي سألني أنطون إذا كنت أبالي بعدم العودة إلى الخزان بعد أن أصبح قادرة على مغادرة المستشفى . وقال :

— إن هناك عملاً جديداً سيبدأ في كينيا ، ونستطيع أن نسافر بمجرد أن تصبحي قادرة على السفر

فسألته في شيء من الارتياب :

— أتقصد أنك ستترك عملك ؟ ولكن لم ذلك يا أنطون ؟ إن العمل في الخزان لم يكد ينتهي بعد أم ترانى مخطئة ؟

لقد كان أنطون يحب عمله في الخزان حباً شديداً ؛ ولكنه تهرب من الإجابة على السؤال الذي نطقت

به عيناى ، وقال فجأة قولاً لم يكن حاضراً من قبل فى رأسه :

— إنهم يضعون هناك مشروعاً عظيماً لتوليد الكهرباء من القوة المائية ، وأنا أريد انتهاز الفرصة للتمرن على حفر الأنفاق . فيمكنك إذا شئت أن تعودى إلى انجلترا لفترة ما

فقلت فى جد تهكمى :

مرحى ! إنك تريد أن تتخلص بمثل هذه الوسيلة من تونى ومنى ! ولكن اعلم أنك إذا قررت الذهاب إلى القطب الجنوبى فإننا سنكون فى أثرك

وأى شىء كان يهمنى من الحياة فى أية بقعة من بقاع الأرض ، على أن الحياة فى كينيا قد يكون فيها شىء من الطرافة واللذة

لم أكد أسترد قوتى وأصبح قادرة على السفر حتى سافرنا . وقد بذل أنطون أقصى جهده ليسهل الرحلة على ويسبغ عليها روحاً من البهجة والسرور . ورأيت من خصاله القديمة ما لم أره منذ أشهر عديدة . كذلك كان تونى فى أثناء الرحلة على أحسن ما يكون فقلت نخورة :

— كأنى به مسافراً طوال عمره . وما قصدت أن أكون متصلبة يا أنطون فى أمر المدرسة التى نرسله إليها ، ولا شك فى أنه سيحب أن يذهب إلى المكان نفسه الذى ذهب إليه أبوه من قبل

فهز زوجى رأسه وقال :

— لقد كنت أنا أيضاً أفكر طويلاً يا ماري إيلين منذ ولد تونى . . .

وتوقف لحظة كما لو أنه وجد صعوبة فى صوغ ما يريد أن يقوله فى اللفظ المناسب ثم قال :

— أظن أنه من الخطأ أن يحاول الإنسان إنشاء ابنه موالياً لدولتين مختلفتين فى وقت واحد إذ لا بد له إن عاجلاً أو آجلاً أن يختار إحداهما فيختصها بولائه ... لا ... أنا لا أريد أن يواجه تونى أبداً ما كان لا بد لى من مواجهته

وفجأة حبس أنطون الكلمات فى فمه وضمنى بين ساعديه عائداً إلى مرحه القديم وإلى ما عهدت فيه من طيبة القلب ، وقال :

— كل هذا لا علاقة له بمبلغ حبى لك وأحسبك تعرفين مقدار هذا الحب ؟

وبقيت لحظة واثقة من أن هناك شيئاً آخر يريد أن يقوله لى ، وكان هذا الشىء يرفرف بيننا صامتاً ولكنه حقيقة مزعجة ، فما عسى أن يكون ذلك الشىء ؟

من المحتمل أنه لو ساغ هذا الشىء إذ ذاك فى كلمات ... ولكن لم يكن الكلام فى ذلك الوقت ليغير شيئاً من الواقع ، وما من شىء كان يمكن أن يحدث غير ما حدث ! فأساس الأمر كله كان مغروساً عميقاً فى السنوات التى مرت من قبل

وبعد أن استقررنا فى منطقة العمل الجديد الذى التحق به زوجى حاولت أن أقنع نفسى بأننى كنت واهمة فى كل ما تخيلت

وكانت الأرض التى يحفرون فيها النفق صخرية صلدة ، وقد أنشئت فوقها على عجل بلدة صغيرة من الأكواخ الحجرية ، وكان كل شىء يحيط بنا طبيعياً حتى لكأن زوجى لم يهرب من عمله الأول مطلقاً . ثم بغير إنذار ولا تحذير تحطمت سعادتنا تحطماً تاماً كأنها لم تك قط

ولكن ليلى إذا رويت الحادث كما وقع لم تبد قسوته على حقيقتها

دخلت غرفة النوم فى تلك الليلة وقد حملت تونى جيداً تحت ساعدى ، على الرغم من معارضته، وكان قد بدأ يتكلم فى وضوح ، على أنه حتى بدون أن يتكلم كان واضحاً أنه غير راغب فى النوم

فقلت له ضاحكة :

« إن هذا غير جميل منك يا بنى ، ولكن كل إنسان لا بد أن يعمل أعمالاً لا يرغب فى عملها بعض الأحيان — حتى أبوك »

فامتنع تونى فى الحال عن البكاء ونظر من فوق كتفى إلى أبيه الذى كان يبتسم له وهو جالس على كرسيه فى غرفة الجلوس . ولست أدرى السبب فى أننى إذا ذكرت الآن هذه الحادثة خفف ذكرها من آلامى بعض الشىء، على أنها تخفف بالفعل

وعلى كل حال كنت لا أزال فى الغرفة الثانية أرقد تونى فى سريره المجاور لسريرنا عندما سمعت أنطون يتحدث مع إنسان آخر فى دمدمة غامضة ! فرجوت فى قلق ألا يكون عائداً إلى عمله فى الليل ، ثم خطوت إلى غرفة الجلوس فإذا بى أرى أمامى تلك النظرة الباهتة نظرة ذلك الرجل الذى جاء ليقابل زوجى فى مصر

وعلى حين فجأة ، وبصورة لا أستطيع تفسيرها ، تذكرت أين رأيت ذلك الرجل من قبل . فقد كان دخولى من الغرفة المظلمة إلى الغرفة المضيئة هو المفتاح الذى فتح باباً فى ذاكرتى كان منسياً

لقد رأيته فى الثكنات خارج بلدتنا — فهل حقاً هو ذلك الرجل الذى رأيته منذ سبع سنوات؟ لقد كنا جماعة نسير إلى ميدان العرض أمام الثكنات: كنت أنا وفيليب وزوجان آخران أو ثلاثة ، وكان أنطون لا يزال متغيباً فى ألمانيا يتم دراسته ، وكانت خطاباته هى وحدها التى تسد الفراغ الذى تركه غيابه فى نفسى ، وكان فيليب يعلم فى ذلك اليوم كما أعلم أنا أننى لم أذهب معهم إلا لأحاول نسيان بعض ما أشعر به من الوحدة .

وكان الرجل الواقف الآن مع زوجى فى غرفة بيتنا أحد الجنود الذين مررنا بهم فى ذلك اليوم ، وإنى لواثقة أنه هو نفسه ، ولكن لماذا يلاحق هذا الرجل زوجى فى كل مكان ؟

شعرت فجأة كأننى أسير مغمضة العين فى بلاد شديدة الخطر، ولو أن أنطون قدم لى الرجل فى هدوء على أنه صديق يبحث عن عمل .

فلما خرج الرجل الغريب قلت :

— أنا واثقة من أن هذا الرجل كان مقيماً بالثكنات فى ليتون ، وما أستطيع أن أنسى أبداً النظرة الغريبة التى ينظرها إلى غيره ، فهل كنت تعرفه فى انجلترا ؟

مضت فترة صمت طويلة قبل أن يجيب زوجى بقوله :

— لقد قابلته هناك

فسألته منفعلة :

— من هو الرجل يا أنطون ؟ ولماذا يلاحقك فى كل مكان ؟

فأجاب أنطون آخر الأمر :

— هو مقاتل وقد ظن أنى أستطيع أن أجد له عملاً ...

ولكنه قطع الحديث فجأة فارتمى على أحد الكراسى وخبأ وجهه بين كفيه وقال :

— لا ... ليس هذا هو الصدق يا مارى إيلين ، فهل تثقين بكلمتى إذا قلت لك إننى سأحاول ألا أراه بعد الآن ؟

فركعت إلى جانب زوجى متوسلة وقلت :

— ما الخبر يا أنطون ؟ إنه مهما يكن من أمر فلن يكون أسوأ من جهلى به، قل يا أنطون، ما شأن هذا الرجل معنا ؟

فنظر زوجى إلىّ بعينين تجلى فيهما معنى الألم وبدا الذبول واضحاً ، وقال آخر الأمر :

— لقد كنت غبيا إذ خيل إلى أننى أستطيع الهرب منه . لقد قلت يا مارى إيلين أن ليس هناك ما هو أسوأ من ألا يعلم الإنسان الحقيقة . ولكن هذا الذى سأرويه لك أسوأ بكثير مما تظنين : لقد كنت أعمل وكيلاً لإحدى التشكيلات ... وهو ... استيفن ... الرجل الذى كان هنا الليلة ، عضو آخر معنا . إنه جاسوس !

وقد نطق أنطون بهذه الكلمة الأخيرة بصوت أجش مختنق

« لا ! » ... إن ذلك لم يكن أمراً واقعاً ، فهذا ما لا يسمع عنه الإنسان إلا فى الكتب . لقد أجفلت متراجعة إلى الوراء قليلاً حتى لا أسمع أنطون وقلت :

— ليس ما تقول صدقاً يا أنطون ، قل لى موكداً إنه ليس صدقاً ... إنك رجل انجليزى فستحيل عليك أن تفعل ذلك ...

فضحك أنطون ضحكة المكتئب وقال :

— أنسيت أننى قلت لك من قبل إننى نشأت على ألا أحسب نفسى انجليزيًا ؟ ألم يحدثونى عن أرض الوطن! يا لله ! إن والدىّ لم يدركا معنى ما كانا يفعلان ؟

ثم قال فى صوت خاشع :

— أظن أنه كان طبيعيًا منهما أن يتعلقا بأصلهما القديم ، وما كانا يستطيعان أن يتصورا أنه قد يبلغ بى البله إلى أن أحسب أننى بمثل هذا العمل أؤدى عملاً عظيما وواجباً نبيلاً لأبناء وطنى . لأننى كما ترين كنت لا أزال أعد نفسى ألمانيا قبل أن أكون انجليزيا ، ولم يغير هذه العقيدة فى نفسى إلا مولد تونى

فصحت وقد ثارت نفسى :

— وهذا الرجل ... هذا الذى يسمى استيفن أكان التجسس هو السبب فى التحاقه فى الجيش ؟ وهل التقيت به هناك من أجل ذلك ؟

فقال زوجى فى تأن :

— لقد طلب منى أن أتصل به . والحق أننى قابلت ذلك بالرضا أول الأمر ، فقلت لك إننى كنت أحسبنى أخدم وطنى

فسألته :

— ولكن لماذا تحتاج دولة أخرى إلى معلومات من النوع الذى تستطيع أن تعطيهم عن الخزانات والأنفاق ؟

فأجاب أنطون وقد نمت نغمة صوته عن ألم اليأس الذى يحز فى صدره :

— ولماذا يدسون رجالهم فى مصانع الطيارات

ومعامل الفولاذ ، لماذا يدخلونهم فى الجيش كما دخل أستيفن ؟ ذلك لأن كل شىء يعلمونه عن المرافق الحيوية لأية دولة أخرى قد يكون ذا فائدة كبيرة إذا نشبت الحرب

ولما تراجعت إلى ظلال الضوء المحيطة بى أمسك بيدى وقال :

أتصدقينى يا مارى إيلين إذا قلت لك إننى لم أعط هذا الجاسوس أى شىء له قيمة ما ؟ وإننى لم أعطه أية معلومات على الإطلاق منذ ولادة توفى ؟

وتوقف أنطون عن الحديث برهة ثم مضى يقول فى تحمس :

— لقد أدركت عند ما ألقيت النظرة الأولى على ابنى أنه خير لى أن أموت من أن أخونه. وأظن أننى قد ولدت من جديد عندما أدركت هذه الحقيقة فيجب أن تصدق هذا الذى أقول

فقلت وقد ارتعشت قليلاً على الرغم من حرارة الغرفة :

— إنى أصدقك ، ولكننى فقط أخاف ذلك الرجل استيفن !

فقال أنطون فى تأن :

— لقد قلت له الليلة ما قلت لك ، ولا أظن أنه سيضايقنى بعد الآن .

فقلت :

— إننا نستطيع أن نرحل من هنا ، ويمكنك أن تحصل على عمل آخر

فهز أنطون رأسه وقد بدا العبوس على فمه :

— إننى لن أهرب مرة أخرى !

وجذب رأسى إلى صدره ، وكدت أبكى لما لاحظت من اشتداد نحوله فى الأشهر الأخيرة .

وقد قال :

— لم يكن لى أن أخبرك بشىء من هذا فقد أصبح كل ذلك فى حكم الماضى

وعدنا تدريجاً فى الأيام التى تلت تلك الليلة إلى حياتنا العادية حتى لقد بدأت أعتقد أن أنطون كان على حق فيما قاله . ولكن لم يكد ينقضى أسبوع واحد حتى عاد أنطون إلى البيت تحت انفعال خفى هو على صمته أفصح دلالة من الكلام المنطوق . على أننى لم أستطع أن أفاتحه بشىء إلى أن انتهينا من العشاء الذى خيم عليه الصمت الرهيب ، وقدم أنطون عن المائدة لا ينبس بحرف ، وعندئذ لم أطق الصبر ولم أستطع حبس الكلمات التى كاد يخنقنى حبسها . فقلت :

— إن هناك يا أنطون خبرا سيئاً تخفيه عنى ، وما أشك فى ذلك أبداً !

فنظر إلى نظرة مستقيمة وقال :

— أما هذه المرة فليس هناك من أمر خاطئ يا مارى إيلين ، غير أنه ليس أمامى متسع من الوقت للتفصيل !

فقلت هامسة :

— أهو استيفن ؟

وهل أنت ملاقيه مرة أخرى ؟

فهز أنطون رأسه فى تردد واشمئزاز وقال :

— هل تثقين بى يا مارى إيلين مرة أخرى واحدة ؟ وإنى أعدك أنه لن يكون هناك بعد هذه المرة ما يدعو إلى الخوف

ثم تركنى وذهب ، وأعقبت خروجه فترة صمت خيل إلىّ أنها أجيال لا عداد لها ، وقد وقفت أفكر فى الأحلام الباطلة التى حلمت بها عن الحياة الطبيعية

السعيدة ، فكرت فى هذه الأحلام فوجدتها تتلاشى فى محيط من اليأس عميق . لقد وعدنى أنطون بأن هذه ستكون آخر مرة يلقى فيها استيفن ، ولكن هل يستطيع الرجل الذى انزلقت قدمه إلى هذا الشرك المعقد أن يخلص نهائياً مما يكتنفه من الأشواك والعقد ؟

خيل إلىّ وأنا واقفة فى مكانى عاجزة عن عمل أى شىء ، إننى سأجن ، فقد كنت على علم بأن زوجى ربما كان فى هذه اللحظة يضع بين يدى هذه العصابة من الجواسيس معلومات قد تؤدى إن قريباً أو بعيداً إلى إهلاكنا جميعاً ، وأية قيمة لأن تكون هذه هى آخر مرة يساهم فيها فى مثل هذه الأعمال الشائنة الفظيعة ؟ إن علمى بما فعله سيقف دائماً حائلاً بيننا وبين السعادة التى كنا ننشدها ، فكأن جمرة ملتهبة قد توغلت فى أعماق ذكرياتنا فهى تحرق كل ما يصادفها وليس فى المقدور اتقاء نارها

وتونى ؟ سينمو ويكبر فى محيط من الخوف والشكوك . لقد تصورت أن بكاء نفسى إن هو إلا من أجل تونى وحده . ولم يكن فى مقدور الدموع أن تصل إلى موضع الألم الذى يثيره فى صدرى التفكير فيما قد يكون أنطون مقدماً عليه لإهلاكنا نحن وجميع الأمهات والأطفال الذين يشتركون فى الميراث الذى يحاول مثل استيفن وشركائه أن يسلبوه

الاستقلال ! الحرية ! لم يصبحا فى نظرى مجرد كلمات تقال . لقد أصبحا أمراً حيوياً لى ولولدى كالهواء وحرارة الشمس . ورأيتنى على حين فجأة أساهم مع جميع الرجال والنساء الذين ذهبوا من قبلى فى عزم شديد للدفاع عن ميراثنا المجيد مهما كلفهم ذلك الدفاع من تضحيات

كان هذا العزم هو الذى دفعنى إلى آلة التليفون فقد يكون فى الوقت متسع لأن يجدوا أنطون ويحولوا بينه وبين ما هو مقدم عليه .

سأتألم غداً من فظاعة ما أنا مقدمة الساعة على عمله؟ وسيكون فى سنوات الكآبة العديدة المقبلة ما يكفى لأن أدرك ما يجب على أن أعمله . أما الآن فكل ما يجب عمله هو أن أسرع العمل إن كان لابد من أن أنقذ أنطون من الهوة التى حفرتها له معاول الولاء الخاطىء الذى تظاهر به أبواه للبلاد التى تركاها وراءهما .

على أنه لم يكن هناك ، مع ذلك ، ما يدعو إلى الاستعانة بالتليفون ، بذلك نبأنى صوت سيارة وقفت أمام الباب

وأظن أننى قد فتحت الباب وإن كنت لا أذكر كيف فتحته ، وكل ما أذكره أننى قرأت على وجه رجل البوليس الجسيم الواقف أمامى ما جاء ليخبرنى به فصحت : أنطون

ولعل الكلمة قد خرجت وحدها من بين سحب الشكوك التى كانت تكتنفنى وتظلم كل شىء فى وجهى .

فقال رجل البوليس :

— لقد قتل يا سيدتى ، ولا بد أن يكون الرجل الآخر — الذى يتسمى باسم استيفن — قد فطن إلى أن هناك شركاً منصوباً له ، فأطلق النار على زوجك قبل أن نستطيع القبض عليه

وسمعت نفسى أردد قول رجل البوليس : « شرك ! ولكن زوجى ؟ »

فقال لى الرجل فى لهجة الجد :

— لا أحسب من مصلحتك كثرة الكلام الآن يا مسز ماير ، ولكن يكفى أن تعلمى أن زوجك

قدمات فى سبيل وطنه ، كما لو كان قد قتل فى ميدان الحرب ، ولا بد من أنه كان عارفاً بمقدار الخطر الذى يتعرض له بتسليمه بعض النماذج التى أعددتها بنفسى لنستطيع أن نقبض على ذلك الرجل متلبساً بالجريمة

لقد كان أنطون عالماً بما يجب عليه أن يفعل حين قال لى : « ثق بى ... وإنى أعدك ... بأنه لن يكون هناك بعد الآن ما يدعو إلى الخوف »

ولكننى لم أدرك قصده وشككت فيه ... شككت فى أنطون الذى رهن على حقه فى أعظم ميراث يستطيع الإنسان أن يطالب به ... ذلك أن يكون بريطانيا ...

قد تكون قصة موته واحدة من آلاف الأخبار التى ترد بها الصحف فى كل يوم ، وبخاصة أن رجال البوليس قد أغفلوا الإشارة فى تقاريرهم إلى العلاقة الدولية المتصلة بالرجل الذى كان يسمى نفسه استيفن ؛ فهناك آخرون يجب الإحاطة بهم ومراقبتهم ويجب ألا يخطر لهم على بال ما نزل بأحد وكلائهم

ولكننى أعرف كل شىء وسيعرفه تونى يوماً ما

إن إنشاء تونى فتى جديراً بالانتساب إلى أبيه وإلى جميع هؤلاء الرجال الذين ضحوا كل ما يحبون فى الحياة فى سبيل الاحتفاظ بحرية بلادهم ، هى المهمة التى لو استطعت أداءها لوفيت لزوجى أحسن الوفاء ولجزيته مما أسأت به إليه فى وهمى .

عبد الحميد عدى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأجزاء الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى فى مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة فى مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه، والأوذيسة لهوميروس، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

موت الدوفين

للكاتب الفرنسي ألفونس دودية

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محجل

ولى العهد مريض . وإن الفناء لفى سبيله المبددة التى مهدتها يد المرض إلى بدن « الدوفين الصغير » ومن كل كنائس المملكة ومعابدها تعلو الصلوات حارة ، وتصعّد الدعوات خالصة أثناء الليل وأطراف النهار ابتهالاً وتضرعاً لشفاء الدوفين الصغير . وطرقات العاصمة القديمة تبدو هادئة هدوء المقابر . يخيم عليها حزن ... حزن الثواكل . والنواقيس والأجراس تدق فتعلو دقاتها الحزينة المعولة تشق أجواز الفضاء صارخة متضرعة . والعربات ... إن سارت فعلى مهل تفادياً لما تُحدث من الجلبة والضجيج ... وتقاطر الأهلون جماعات جماعات يتطلعون فى فضول إلى الحراس والشامسة بنية التقاط أنباء المحتضر الصغير

القصر فى هرج ومرج ، ورجال البلاط يصعدون الدرج الرخامى ويهبطون فى سرعة شديدة ، وفى أروقة القصر وردهاته طفق وصائف الملك وندماؤه يروحون ويغدون فى قلق وحيرة مُرَدِّدين فيما بينهم ما جدّ من الأنباء الهامة والأخبار المقلقة

وانبثت وصيفات الشرف فى سائر الحجرات يعولن وينتحبن وهن بين الفينة والفينة يمسحن دموعهن اللألاءة بمناديلهن الموشاة المعطرة ...

* * *

اجتمع فى حجرة الدوفين المحتضر نفر من الأطباء المبرزين تبدو على وجوههم أمارات الحيرة الشديدة واليأس المرير ...

وراح المحافظ ووصيف « الدوفين » الخاص يذرعان الردهة جيئة وذهوباً أمام الحجرة فى قلق واضطراب منتظرين حكم القدر النافذ وكلمته القاضية ومَرّ بهما فى أثناء ذلك خدم المطبخ فلم يحيّوهما . وهل ثمة بال الآن لتدارك آداب التقاليد المرعية ؟ ولكن وصيف « الدوفين » الخاص سبهم سب المغيظ المحنق بينما غمغم المحافظ ينتف من أشعار هوراس ... ومن ناحية الإصطبل سُمِع صهيل جواد فى نبرات نائحة حزينة . إنه جواد الدوفين الصغير ، وقد أهمله الخدم ولا ريب ، فلم يضعوا له طعامه المألوف !

والملك ! ... أين جلالة الملك ؟ ! ... أجل ... إنه وحيد فى حجرة مقفلة ، نائية عن كل حجرات القصر ... إذ يجبُ ألاّ يُرَى ذوو الدم الملكى باكين معولين . أما عن الملكة فهذا شىء آخر . إذ جثت بجوار فراش المحتضر العزيز بعينين أرعبهما الدمع السخين ، وإنها لتبكى وتنوح بصوت يفتت الأكباد كما تفعل أية امرأة أخرى فى هذا الموقف الصعب الشديد !

الدوفين The Dauphin : لقب كان يطلق على أكبر أبناء ملوك فرنسا من سنة ١٣٤٩ إلى سنة ١٨٣٠

ورقد الأمير الصغير على سرير الموت بعينين مسبلتين ووجه أشد بياضاً من الوسادة التى غاص فيها رأسه الصغير ، وحسب الجميع أنه نائم ، وما هو بنائم ، إذ التفت نحو أمه الجاثية بجواره وقال حينما رأى دموعها الغزار :

— سيدتى الملكة ! لماذا تبكين ؟ أحسبك كالآخرين تظنين أنى سأموت حقاً !؟

فحاولت الملكة أن تتكلم فخنقتها العبرات

— لا تبكى يا سيدتى الملكة ... إنك تنسين أنى ولى العهد . إن أولياء العهد لا يموتون بهذا الشكل ، ولا يؤخذون بمثل تلك السهولة

ودب دبيب الخوف فى قلب « الدوفين » حينما ألقى أمه تواصل النحيب . ثم قال :

— كفى يا سيدتى عن هذا العويل ، فلن أسمح للموت أن يأخذنى ، وإنى لمانعه عن الدنو منى إذا أتى . سُرى فوراً أربعين من رجالنا الأشداء فيحيطوا بسريرى ، وجهزوا المدافع الكبار تحت النوافذ وويل للموت إذا حضر بعد ذلك ! ...

فأصدرت الملكة أمرها بكل ذلك تحقيقاً لرغبة المحتضر الصغير . فلم تمض بضع دقائق حتى سمعت قرقعة عجلات المدافع فى الوصيد . وأحاط أربعون حارساً بالسرير مدججين بالسلاح . وعقد الدوفين ذراعيه فوق صدره وظل ينظر فى وجوه حراسه من الموت . فعرف أحدهم وناداه قائلاً :

— لورين ... لورين ... فتقدم الجندى نحو السرير خطوة . فأردف ولى العهد :

— إنى أحبك كثيراً يا جندى القديم لورين .. أرنى سيفك الكبير ... ستقتل الموت ولا مراء إذا أراد أن يأخذنى ! ... هيه ؟ ...

فأجاب الحارس وقد تحدرت دمعتان كبيرتان على خديه :

— أجل ... أجل يا مولاى ! ...

هنا أقبل قس ودنا من الأمير وكلمه طويلاً فى صوت يشبه الهمس ثم أراه الصليب ، فأصغى الأمير إليه فى دهشة عظيمة ثم قاطعه بقوله :

— لقد فهمت ... ولكن ... ألا يقبل صديقى الصغير « بيبو » أن يحتل مكانى ويموت بدلاً منى ونعطيه على ذلك أجراً كبيراً ؟ !

فعاد القس إلى حديثه المنخفض بينما أخذت أمارات الدهشة تمحى رويداً رويداً من وجه الدوفين الصغير ، وقال ولى العهد عندما انتهى القس من حديثه :

— محزن كل ماتقول ياسيدى . ولكن مايعزينى ويدخل على نفسى الصبر والجلد هو أنى سأظل فى الجنة ولياً للعهد . وإنى لأعلم أن الله هو ابن عمى . وسوف يحسن وفادتى ولا ريب لمنزلتى لديه

ثم نظر إلى أمه واستأنف الحديث :

— سُرى بأجمل ثيابى ، وبجميع لعبى ودماى . إذ أنى أريد أن ألقى الملائكة وأدخل الجنة تحف بى العظمة والأبهة بما يليق بمنزلتى ومقدارى ! ...

فانحنى القس على الأمير للمرة الثالثة وأسر له حديثاً . فقاطعه الأمير فى لهجة غاضبة :

— إذن ماذا أفيد من كونى ولياً للعهد ...

ورغبة منه فى عدم الإصغاء إلى حديث آخر أدار وجهه إلى الحائط وأنشأ يبكى وينتحب ...

محمد عبد الفتاح محمد

من حياة الريف

قصص ...

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب السيد محمد العزاوى

كانت الشمس تجنح للمغيب حين جاوزت قرية (د...) مندفعاً فى الطريق الزراعى إلى مدينة (ب....)، وكانت الطبيعة ساكنة إلا من خوار بقرة بعيدة، أو زقزقة عصفور . وكان الهواء يهب رخياً هنياً، فيداعب عيدان الذرة الخضراء الممتدة فى الغيطان من حولى إلى أقصى الأفق . وكانت الظلال وادعة لا يحرك منها إلا تنقل الطير على أفنان الأشجار المورقة ، وكانت هذه تقوم على جانبى الطريق ، وتتكاثف فى الجانب الأيسر ، فكانت تحجب عنى النهر فى معظم الأحيان . على أننى كنت أستطيع أن أرى أشرعة السفن البيضاء تجرى فى صفحة الأفق القريب ، وكنت أرى الشمس حين تسمح لى بذلك فروج الشجر قد ذهبت حواشيه فأتبعه بصرى حتى يغيب وراء الشجر المتكاثف ، أو ينتهى بى البصر ، حتى ينعطف النهر فلا أراه !

كانت هذه المناظر تتواثب من حولى ، بينما أنا مندفع فى هذا الطريق المنفرد فى هذه الشقة من الأرض . وكانت تهزنى لدى رؤيتها بعض الذكريات فأبتسم لنفسى فرحاً مسروراً . . . على أن من رآنى كان يظن أنى غافل عن كل هذا ، لأننى كنت مندفعاً اندفاعاً لا يسمح لأحد بالتمتع بشىء مما كان يرى . ولكن مرأى الطريق كانت تثير فى ذهنى ذكريات النزه الشائقة والليالى المقمرة ، والغرويات الحسان ؛ وصيد السمك ، وقنص الطير وحمدان وهندوان.

وانعطفت إلى اليسار ، فقد بلغت حنية النهر ، بعد ما ندى العرق جبينى، وتلفت حولى لأرى الزورق فينقلنى إلى الشاطئ الآخر حيث تقوم دار صديقى وقفزت فى الزورق الراسى إلى الشاطئ ، ولكن... أين العم حمدان ؟ وتلفت حولى — مرة أخرى — مندهشاً لأرى عم حمدان ... فلم أره ! ولم أر أحداً حولى إلا فتى فى ظل تونة ، ينسج طاقية من الصوف وهو يغنى . وزادت دهشتى وحيرتى ! فأنا أعلم أن العم حمدان لم يكن ليفارق زورقه طوال يومه ؛ بل كان يسير به فى عرض النهر : إما حاملاً الناس إلى الشاطئ الثانى من النهر ، أو متصيداً السمك . ولم أره طوال إقامتى فى العام الماضى — لدى صديقى — يتركه أبداً ... فكيف ترك زورقه اليوم ؟ !

ولعل الفتى الناسج الشادى رأى حيرتى وتلفتى فهب إلىّ مسرعاً خفيفاً ، وقفز إلى الزورق مبتسماً ومعتذراً . فقلت له بعد أن رددت التحية :

— فأين إذن العم حمدان ؟

فهز الفتى رأسه وتمتم :

— أظنه هو الذى كان يعمل فى هذا الزورق قبلى ، إننى أعمل هنا منذ ثلاثة أشهر يا سيدى

ودفع الزورق فى عرض النهر بساعديه المفتولتين وطفق يضرب النهر بجدافيه فيزيد صوت التطامهما بالماء هذا الشعور الرخى فى نفسي ؛ وكان شعوراً عجيباً من السرور يشوبه نوع من الحزن . فقد تعودت أن ينقلنى عم حمدان إلى الشاطئ الآخر ، وخالجنى الحزن بقوة لا أدرى لماذا . فلعله كان من أغراض رحلتى — دون أن أعلم — أن أتمتع بمرآه هو وابنته « هندوان » . فحزنت لأن جانباً من رحلتى لن يتحقق . على أنى — والله — كان بى شوق إلى الرجل وابنته . فقد نمت بيننا الألفة رغم أيامى القصيرة التى قضيتها عند صديق منذ عام .

ولأمر ما التفت نحو الشاطئ حيث كان يسكن وابنته فى كوخ هناك لا يبعد كثيراً عن آلة الماء . ها هى ذى آلة الماء قائمة لا تزال ، وها تان الصفصافتان ما زالتا ، وتحت الثانية كان الكوخ يقوم . ولكن أين الكوخ ؟ ... حقاً كان هناك شىء لم أتبينه ، فلعله هو . نعم هو ! . . . فقد تجلى لى من موضعى الجديد . إنه محطم ، وخاصة مؤخرته كأنما دكتها صاعقة . وبدا لى جانبه المجاور للنهر محطماً مهدوماً ، ورأيت الطحلب الأخضر قد علا وصيده الحجرى والدرجات الهابطة منه إلى النهر ، والنافذة التى أراها الآن محطمة ، وسماء الكوخ النابى قد مال فى المؤخرة إلى الأرض ، فكأن الكوخ كلب أقعى ... ترى ماذا حل بالكوخ ؟

وكان الزورق ينزلق على صفحة الماء المذهب فى سرعة وخفة ، والجو جميلاً فاتناً ، والطيور تثب من حولى على غصون الشجر رائحة إلى أوكارها ... وهنا على الضفة الأخرى كانت تقوم محلة صديق . بل هذا منزله مستشرفاً بين المنازل المتواضعة بطابقه الثانى ذى الشرفة المطلة على النهر . كل هذا كان يحوطنى ، وكنت شاعراً بكل جمال فيه أو مظنة لجمال . غير أنى كنت أشعر بفراغ كبير من حولى فقد فقدت هذه الشقة جزءاً كبيراً من شخصيتها ، حقاً ! إنك لم تكن لتتذوق جمال المكان إذا كنت لم تعرف عم « حمدان » و « هندوان » ! !

وترافصت أمامى الأشكال والصور سريعة تتواثب : فها هو ذا عم حمدان ينقلنى إلى البر وينقل الناس إلى القرى المحيطة ، لا يقعد به تقدم السن عن ذلك ... وها هو ذا فى يوم الخميس لا يكاد يحك جلده من كثرة عمله ، إذ اليوم سوق المدينة ، وها هو ذا يتصيد فى عرض النهر بشباكه نشيطاً قوياً . . . ها هو ذا فى الليل نافخاً فى أرغوله الحنون ؛ ثم فى صباح الشتاء العابس ، يسبح فى النهر ، ولا تكاد ترى إلا رأسه الأشيب ، ووجهه العربى قوى الملامح ، ولحيته الشهباء يتحلب منها الماء ! ... وهندوان اللطيفة الناعمة ... ها هى ذى تملأ الجرة مع الفجر وأبوها يستحم ! فلا تقوى ساقاها الليطفتان على حملها هى وجرتها الصغيرة ... ها هى ذى غادية مع الصباح فى ذلك الطريق الأشجر إلى قرية (د...) تسير صامتة حزينة على نغم الخلخال الفضى العريض ؛ ثم ها هى ذى تلقاك باسمة خفرة ، ولكنك تلمح فى بسمتها شيئاً من الأسى الدفين ، تقرؤه فى زمة شفتيها اللعساوين ؛ وعلى وجهها إشراقة الروح المعذب يتراءى لك فى سحابة خفيفة تظلل وجهها الصبوح الأسمر ، وعيناها الواسعتان المكحلتان ، وأهدابها الغضيضة الوطفاء . . . كل هذا كان مليئاً بالسحر الحزين الكسير ! ... ...

وقطع علىّ حبل التأملات صوت الزورق ينبهنى

أنا قد رسونا ، فغابت عن ذهني كل التأملات كما غابت الشمس من وراء الأفق . ونقدت الفتى أجره ، وقفزت إلى البر يحدوني الشوق ويغذ من خطاى ... وما انفتح البـاب حتى غبت فى أحضان صديقى الواسعة ، ولم أفلت منه إلا بعد لأى . واندفع يثرثر ويجأر بحنجرته القوية ، ويقفز هنا وهناك بجسده البدين . وجادت قريحته ، وفرهت نكتته . وأعدانى بمرحه فطفقت أضحك حتى دمعت عيناى ... وكانت الأحاديث متتابعة مبتورة مسرعة . إذ كانت تثيرها ذكريات مشتركة متفرقة من عهد التلمذة ، وبدء التوظف والتغرب ؛ وتدبر دفتهـا ميول متوافقة وأمزجة متحدة فى سرعة وخفة . فهى تعرج بنا إلى حادث ما فترينا منه لمحة ، وتعرج بنا على ثان وثالث ورابع ... وتناولنا طعام المشاء وأثقل على صديقى فأفرطت فى الأكل إفراطاً بعث فى جسدى الخدر والاسترخاء ؛ فاستلقيت قرب النـافذة أستروح النسمات العذاب . وكان القمر يلتمع فى سماء الصيف الصقيلة الرائعة

وكان السكون منعقداً فى الخارج لا يشوبه إلا عواء ذئب أو نعيق بوم . وبعد مدة من الصمت صاح بى صديقى :

— ما لك قد سكت ...

فأجبته : لا شىء

وعاودت النظر إلى البرية ، وفى نفسى قلق الباحث عن شىء ما ، وكان سكون المكان يثقل علىّ ويبدو لى غريباً . وملكتنى وحشة لم أدر كنهها . . فلو أن نوتيًّا مرّ فغنى وأقلق ذلك السكون ، أو أن كروانًا مزق هذا الحداد ، أو داعب عم « حمدان » أرغوله بأنامله الدقاق ! ولكن لا شىء من هذا !

وثبت نظرى على الكوخ ، والتفت إلى صديقى قائلاً :

— أين راح عم حمدان ؟

— إنه الآن بائس مجنون

— مجنون ! ؟ منذ متى ؟

— من ثلاثة أشهر

— وإلى أين ذهب ؟

— إلى حيث لا أدرى ، ولكنه يغشى المكان بالليل كثيراً

— ولماذا جن ؟

— قلت لى لماذا . حسن !

* * *

هبط عم « حمدان » وابنته ـ اثنين لا ثالث لهما ـ هذه الشقة من الأرض قبل أن أبتنى هذا المنزل هنا . وأكبر الظن أنهما هبطاها قبل أن يبجها محراث ، أو يشقها ماء . ولم يكن أحد يعلم من أمرهما أكثر من ذلك . اللهم إلا أنه عربى ناهز الخامسة والخمسين ، وأن له خبرة — ككل عربى — بأمراض الغنم وأصوافها . فكانوا يقصدونه لاستشارته ، وأنه أشبل على ابنته الوحيدة التى يحبها حباً جماً

ولا أدري كيف ومتى أوحى للعم « حمدان » أن يتخذ الزورق حرفة له . ولكنى أتيت فألفيته يحمل الفلاحين والتجار الذين يأتون من القرى المحيطة للاشتراك فى سوق المدينة يوم الخميس . ولا تحسب أنه لم يكن يغل كثيراً من عمله فى تلك الشقة المنعزلة من الأرض ، كلا فقد كان دائماً فى عرض النهر رائحاً جائياً يتغنى بأغانيه الريفية طوال النهار ؛ وكانت ابنته تنام مبكرة ، ولكن أباها كان يخلو إلى نفسه بالليل بعد أن يطمئن عليها مرات ومرات . ويحتبى بعد ذلك بالنار ، سواء فى ذلك لديه الصيف والشتاء ،

فينفخ فى أرغوله المرن ساعات ، أو يغنى بعض أغانيه التى سمعناها معاً ؛ أو يداعب حظه فى « السيجة » مع أحد أصدقائه ، أو ينزل الصوف فى صمت وتفكر وبين يديه الشاى المرى على النار يغلى . وأكبر الظن أنه لم يكن يشغل ذهنه إذ ذاك إلا ابنته لأنه كان يقوم من آن لآخر ليرى ابنته ويطمئن على غطائها جيداً . كانت هذه حاله جل الليل ، فإذا ما داعبه السكرى قام فتطرح إلى جنب ابنته على أن يصحو مع الفجر !

أما «هندوان» فكانت واهنة تغالب الموت شقية تجالد الألم ! كانت روحاً منعزلة تألف الحزن والوحدة وكان أبوها يحبها حباً ملك عليه كل حواسه . فلم يكن يحيا إلا لها وبها بعد أن أشبل عليها فلم يتزوج؛ وكان يضن بها على العمل وشقوته . ولم يكن يتوانى فى قضاء ما تهفو إليه بغية إسعادها . ولكن ضعف الفتاة وهزالها كانا يفزعانه ويزيدان عطفه عليها وإشفاقه . فلم يكن يستريح فى سهرته الطويلة إلا بعد أن يطمئن عليها نحو خمس مرات . حقاً لقد كان يعزها إعزازاً صامتاً يبدو فى حركاته ونظراته أكثر مما يبدو فى كلامه .

وكانت الفتاة رغم هذا تضمحل وتذوى كالزهرة حرمت الغذاء . فقد كانت نفسها تتطلب شيئاً آخر، كانت تعصف بها عاصفات من الحنين والألم كثيراً ما جعلتها تسخط على أبيها المسجوز، وكثيراً ما كان خيالها يسبح وهى جالسة أمام المدفأة الصغيرة فى ليالى الشتاء فيصور لها ما تهفو إليه من رؤى السعادة والهناء. كانت حزينة تجتر أحزانها فى ألم وسكون ، وأبوها يرقبها فى حنان ، ويبذل كل ما يستطيع ، ولكن الفتاة كانت تنفر من كل شىء حتى من عطف أبيها .

وكثيراً ما كانت تسهو فتمضى الليل ناظرة من نافذة الكوخ فى تطلع وحزن مصعدة بصرها بين النجوم فى حيرة وتنهد . وقد يدخل أبوها فيراها على حالها هذه ، فتطغى على نفسه الكآبة وينشاء الحزن ، ولكنه ما يلبث أن يسرى عن نفسه ، ويضاعف حبه لها واهتمامه بها ليصرف عن نفسه أفكاراً تخامره من حين إلى حين .

كان يزداد بها كلفاً ، وهى تزداد نحولاً وحزناً . وكان يتساءل فيما بينه وبين نفسه مالها تزداد كل يوم حزناً ونحولاً . ما للمرح قد تولى عنها ، وما لشفتيها الضاحكتين قد زمتا ، وانطفأ بعينيها الكحلتين الواسعتين بريق غريب ؟ ما بالها تلك البنية ... ؟ كان أبوها يعز لها بسعده ، وإشفاق عليها يشقيه ؛ فكان مثلها يتعزل الناس ، وينصرف إلى أرغوله يبثه لواعجه وأشجانه فيحيلها حزناً رخيًا ينساب به مع الليل ... فى هذا الكوخ الوحيد كان يعيش روحان وحيدتان هرمتان . روح أثقلتها السنون ، ونالت منها الأيام ؛ وأخرى شابة تخطت نحو الشيب خطوات وهرمت قبل الأوان ... كانا نجمين كليلين وحيدين يهيمان فى سحاب ثقال

وأكبر الظن أن الفتاة كانت تروض نفسها رياضة ، وتحمل نفسها حملاً على الرضا بما هى فيه من ألم وحرمان ؛ فقد كانت تحب أباها الحب كله ، وتشفق عليه كل الإشفاق . ودت إذن لو تستطيع أن تحمل نفسها على أن تستعيض به عن الزوج والولد ؛ وأن ترضى بحبه ما يجيش فى صدرها البكر من أحاسيس مبهمة ، ومشاعر غامضة ، وأن تجد فيه ما يسبح إليه الخيال فى ليالى الشتاء الطويلة الحزينة الباردة

ومضت الأيام على ذلك تترى والحال هي الحال. فقد كانت تقوم على شئون الكوخ البسيطة القليلة. وكان أبوها يذرع النهر بقاربه ويتصيد؛ وكان يجلس كل ليلة إلى ناره وأرغوله المرن الصادح. وقد كان يعتز بها الاعتزاز كله، فهو قد جمع فيها آماله، وركز فيها أهله، وكانت الأيام لا تزيدها به إلا حبا، وكانت الأيام لا تزيده إلا تمسكا بها وكلفا. وقد كان أبوها يرفض كل يد تتقدم إليها ما فى ذلك تريث أو نظر، وما فى ذلك من تفريق أو استثناء.

فقد جاء إليها خاطباً فلاح موسر من قرية د... هذه، وهو يملك خمسة أفدنة فرفض، وتقدم إلى أبيها عربى من محلة ... فرفض. ولعله رفض بعد ذلك أناساً، ولعله رفض قبل ذلك آخرين. وقد كان ينتحل فى كل مرة عذراً متهالكاً لا يكاد يتماسك، وهندوان صامتة حزينة ساهمة، كأنما الأمر أمسى لا يعنيها فى شىء، أو أمسى يتعلق بأخرى غيرها... وما كان عم حمدان يزداد فى كل مرة إلا حبا لها وتشبثاً بها، ورغبة فى إسعادها. وما كانت الفتاة تزداد فى كل مرة إلا شحوباً وحزناً، وما كانت تزداد إلا نفوراً وانقباضاً ويأساً. والآن ما أشد حزنه حين يرى الفتاة تذوى وتشحب، وما أقلق قلبه إذ تعتزله وتستغلق منطوية على نفسها بما فى هذه النفس من آلام ولواعج. وما أشد رغبته أن يبهجها ويسعدها، ولكنه لم يكن يملك من الأمر شيئاً... طلب لها الطب العربى فما أفاد، ووسع عليها فى الزينة واللباس فما أفادا ولا أجديا. ورضى بأن يغدق عليها من حبه وحنانه وبره ما قد يرفه عنها بعض ما تجد

وفى ليلة من ليالى الشتاء الحزينة تأخرت «هندوان» فى قرية (د...) إلى حد كبير، أغلق أبوها فأقامه وأقعده. فلم يُرَ نافخاً فى أرغوله، ولا مستوياً أمام ناره، ولكن مولياً شطر هذا الطريق بصره الحديد. وبعد هزيع من الليل عادت مقرورة مضطربة، ترتعد من البرد، وتقضقض من الزمهرير. فتلقفها أبوها فى صدره العريض العجوز ولكنها كانت محمومة ترتعد. فدلفت إلى الكوخ، وازملت بكل ما يصلح للتزمل والغطاء. وأوقد أبوها الدامع ناراً فى الكوخ، حتى يبعث الدفء فى المسكن ذى الحجرة الواحدة. على أن ذلك لم يغن شيئاً من رعدة الحمى إذ تعلو جسدها اللطيف إلى حين من الليل وباتت هاذية ...

وقال صديقى:

وكان العم «حمدان» لا يستريح لأحد من جيرتنا قدر ما يستريح إلى. فدعانى ليلة لأعود ابنته فلبيت وأسرعت إلى الكوخ لهفان مشفقاً. وكان ظاهراً لى أنها حمى. هذا حسن! ولكن أى نوع من الحمى؟ لم أكن أدرى. غير أنى كنت أعتقد بأنه إن كان للحمى أن تزور مثل هذا الجسد اللطيف الواهن فلا بد أن تترفق به فترسل إليه أسهل الأنواع وأرفقها! وجلست حيالها وهى منسرقة مسبوتة، يتقد جسدها بنار الحمى، ورأسها بدوار الهذيان. كان وجهها يطالعنى ملتهباً، وأنفاسها تهب على مبهورة ... وغمرتنى حيالها لجج من التفكير المحزن فما من شك أنى كنت أعطف عليهما معاً. ولكننى كنت أشعر نحو الفتاة خاصة بنوع من العطف القوى، والإشفاق العميق. فإنه يعز على المرء أن يفقد هذه الريحانة فى صحراء مقفرة من الرياحين. فهذه هى ممددة على الفراش ولا عاصم من الموت،

وها هو ذا عم «حمدان» ساهماً جزعاً لا يملك لها من الأمر شيئاً ، أكله فلا يجيب ، وأحادثه فلا يعي . وها هو ذا يحدق فى «هنداوان» جهد البصر الزائغ ، ويتمتم لنفسه كلمات لا أسمع منها شيئاً . ثم ها هو ذا يغض من بصره إذا ما تلاقى بنظرات الفتاة المدنفة

ومضى على مرضها أيام عدة لا يخرج فيها عم حمدان من الكوخ لينقل الناس أو ليتصيد . ولم يكن يؤرث النار ، أو يدير على الكون أرغوله . وبعد هدأة طويلة من إحدى الليالى جاءنى أغبر الوجه ، أشعث الشعر مصفاراً . فقلت له وجلاً :

— خيراً يا عمى حمدان ؟

فأجابنى فى صوت عميق :

— « هنداوان » !

— مالها ؟

وأجاب صرختى بكاء يكاتمه العجوز ، فيأبى إلا الجهر والعلانية ، ودمعات كالحصات الكبار تنحدر على خده الأسمر . وتأملت الرجل فى حزن وفزع ، فإذا بالعمر قد قفز به إلى أمام عشرة أعوام تغضن فيها وجهه وانحنى ظهره تحت عبئها الثقيل . وفى الكوخ كانت « هنداوان » ممددة على الفراش بقامتها الرشيقة وصدرها البكر ، ووجهها الحالم يحفها سكون الموت ، ويضمها جلال الفناء . كانت شيئاً جميلاً ازدانت به شقة من الأرض ، وعاش من أجله شىء عجوز . كانت نجماً وحيداً غرب سريعاً فى صمت وجلال ؛ فأظلمت لغروبه شقة منعزلة من الأرض ، وأقفرت نفس عجوز ، وانحطم زورق عتيق ؛ ودمعت عيناى لهذا البؤس الذى أرى . ولكن العم حمدان أمامى جازع فزع ، لا يني عن البكاء أو العواء ! فقد كان يبكى كالطفل ، ويعوى كالذئب ، بل كالكلب العليل . وكانت أول مرة أرى فيها شيخاً ينشج نشيج الأطفال ، ويجزع جزع الثكالى . فطفقت أخفف عنه ما يجد ببعض العزاء ، بل بكل العزاء الذى أملك . ولكن ذلك لم يكن ليحول بين ذراعيه البائستين وبين أن يلوحا فى الهواء كأنهما يهددان ما لا أرى من شخص أو شىء أو شبح ، أو يحول دون أن يعوى عواء مؤلماً كسيراً :

— رب ! ماذا فعلت لكل هذا ؟

فكأنما الكارثة لم تحل بساحته إلا لذنب جناه وكأنما هى قصاص !

— ماذا فعلت حتى تجازينى بهذا ... ماذا فعلت يا رب ! !

وكان عمى حمدان حريصاً كل الحرص على أن يشيح بوجهه عنى . فكأنما هو خجل من أن أراه على حاله هذه ولكنى تأملت الرجل من دموعى الواكفة وقد كنت أحس كأنما هو يخفى عنى شيئاً هو مبعث كل هذا الجزع والحزن وقد شعرت بأنه يخفى عنى بينه وبين نفسه جريمة ما يحرص كل الحرص على ألا يذيع من أمرها شيئاً . فلعله كان يحس بأنه هو الذى أذوى شباب الفتاة بشيبه ، وحطم آمالها بأنانيته ، وقتل قلبها بغرامه ، ولعله كان يحس بأكثر من هذا ، بأن ما حل بفتاته لم يكن إلا سخرية من أنانيته وتشبثه ، وقصاصاً على حساب من يهوى ويحب . أدركت ذلك كله ، وخشيت منه على العم حمدان أن

يرهقه هذا الشعور ، ويثقل عليه ، ولكنه كان يحاول أن يروض نفسه على الرضا فلا يقدر ، وأن يقهر نفسه على التسليم فلا يستطيع ؛ وكان التفكير فى ذلك يغرقه فى ذهول عميق . وما أظنه كان يفكر فى شىء غير هذا إذ يبيت أمام كوخه يشعل النار وينفخ فى الأرغول ، وإذ هو يصرخ فى أرغوله صرخات جازعة ملتاعة هى دون شك صدى آلامه .

وما أظنه كان يفكر فى شىء غير هذا إذ يقضى سحابة يومه محدقاً فى مياه النهر المتدفقة لا يكلم أحداً فكأنما ختم على فيه . وأكبر الظن أن آلامه كانت تتجسد على صفحة النهر وأن أشباحاً مفزعة كانت تتراقص على أمواج الماء المتدفق المترحل إلى آفاق بعيدة نائية

وعلت وجهه الصفرة ، واحتوى جسده الجزع وتمشت فى جلده الغضون ، والتمعت عيناه ببريق غريب مذعور لا يثبت على شىء ، ولا شىء يجتذبه . وشاع بين الناس أن مساً أصاب حمدان

ثم ترك الزورق ، وهجر الكوخ ، وذهب

— إلى أين ؟

— لا أدرى ولكنه يغشى هذا المكان بالليل كثيراً ...

* * *

وصمت ، وصمت . وانسدل بيننا ستار من السكون كثيف . وبعد برهة صاح بى : « ما بك ؟ » غير أنى صحت به : « صه ! » فقد كنت ألقى السمع إلى أنات أرغول تغالب البعد السحيق

السيد محمد العزاوى

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطائب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربي فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

صدرت الطبعة الجديدة من :

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

في طريق الغرام

أقصوصة عراقية

بقلم الأديب السيد قاسم محمد

... ولطالما تاقت نفسه للوحدة والانفراد ليخلو إلى أفكاره وأمانيه التي يشغل بها مخيلته لمجرد التسلية وقتل الوقت الذي لم يعد جزءاً مهماً من حياته الخالية التي كرهتها نفسه . فود أن يحدث فيها ولو تغيراً يسيراً ...

تحركت ساقاه كرقاص ساعة كبيرة فارتسم خياله الممتد على سطح جدار متهدم تحت نور القمر الباهت حينما انعطف في زقاق ضيق انبعثت منه رائحة العفونة وبرزت على جانبيه تلك النوافذ القديمة المقوسة كأنها ظهر أحدب أو شيخ أثقلت كاهله سنو الشباب فراح يحملها معتزا بها فخوراً بذكرها ، ولو أنها أحنت منكبيه إلى الأمام وقوست ظهره فبات كقنطرة بالية ...

ملأ رئتيه ما استطاع من الهواء الندي العفن وزفره ملتاعاً مما غشيه من القلق والهم

يا لله ! إن كل شيء عجيب في هذا الطريق ... حتى كلابه التي لا تكلف نفسها عناء النباح على المار الغريب ، بل تكتفي أن تنظر إليه نظرة بليدة خالية من كل معنى . . . حتى جدران بيوته التي أبى النور إلا أن يمزقها دالماً لسانه من ثقوبها المتعددة ساخراً منها لدى الطارقين ، وحتى سطوحها التي أبت أن تعلو عن سطح الأرض كثيراً خشية أن يصيبها الدوار فتسقط حجارتها على قارعة الطريق فتتهشم على أديمها وهذا من حسن حظ العابرين ...

تثاقلت قدماه قليلاً ليشعل سيكارته بعود ثقاب

وبعد أن نفث دخانها وتلاشى فوق رأسه كأحلامه المسولة راح يتطلع إلى تلك النوافذ العجيبة علها تحوي جسد فاتنة تنسيه هواجسه وتلهب دمه ، دمه البارد الذي أوشك أن يتجمد في شرايينه ... هذا إن كانت تحمل دماً بمعناه الصحيح

لقد ازدحمت الأفكار في ذهنه وأوشكت أن تسيل على لسانه كلمات يلفظها فتتبدد وتتلاشى ، لولا أن جلب انتباهه صوت امرأة خافت كأنه هفهفة النسيم قد داعبت أذنيه من إحدى تلك النوافذ . لم يتبين المقاطع جلية ليفهم ما قصدته فسبقته عينه متطلعة إلى أخشاب نافذة لا تعلو عن سطح الأرض إلا بأربع أقدام ... لم يبصر شيئاً سوى خيال لا يكذب من يقول : إنه تراءى خلف ألواح خشب شفاف لكثرة شقوقه

لم يدر عابر طريق الغرام الجديد ماذا يعمل تجاه هذا الحلم الحقيقي الغامض فارتكزت قدماه على الأرض كعمودين شيدا من قديم الزمن ، وارتفعت يمناه بسيكارته إلى فمه أما اليسرى فلم تجد ما تعمله سوى

أن تندس فى جيب (بنطلونه) تطلب الدفء

وقف وهو مرهف سمعه ينتظر أن يحمل له الهواء الراكد صوتها الخافت ، ولكن لأول مرة عرف أن الوقت يسير متباطئاً ، ولأول مرة عرف أن الدقيقة الواحدة تكفى لعمل عدة أشياء خلالها وذلك للصمت الذى خيم عليه .

لقد انفرجت كربته ووثب قلبه راقصاً بين حنايا ضلوعه حينما تحركت تلك الأبواب الخشبية الشفافة كأنها عجوز تتثاءب وأطلت من خلال قضبانها الحديدية التى علاها الصدأ إنسية راقت لعينيه . ولم ينبهه من ذهوله إلا صوتها الحاد الرقيق قائلة :

— ألا تستحى !

— آه! كان يجب أن أستحى من جمالك ولكننى ذهلت عن أمرى، فمعذرة ...

— يالك من وقح ! ...

— أرجو ألا تزعجى نفسك بإنشاء أمثال هذه العبارات وإلا كلفت نفسك عناء كثيراً . فأنا طبق الأصل من أى جملة تريدين قذفى بها ، وكفى ... قالها لاهثاً وبإيقاع موسيقى سريع ، ولم يزد على أن ضحك ، فضحكت هى أيضاً ، وأغلقت نافذتها الشفافة بكل بطء وتراخ فأطفأ نور الغرفة وتلاشى ظلها عن الأبصار ...

لم تكن من بنات الشوارع ، ولم يكن هذا الزقاق الذى يسير به صاحبنا من المواخير السرية، بل لقد أطلق عليه اسم طريق الغرام صاحبنا (مظفر) الذى ما زال واقفاً يتأمل هذا البناء القديم وهذه النافذة العجيبة ...

قال لنفسه بعد ذلك بلهجته الساخرة المرحة ، ولكن بصوت أراده أن يكون مسموعاً ...

— من يصدق أن التاريخ يعيد نفسه ، وأننى الآن فى أحد شوارع ألف ليلة وليلة الخيالية بل ربما كان أكثرها حقيقة لاعجاز فيه ؟ . . ألم يكن قبل الآن لا يؤمن بالمعجزات والمصادفات ... ولكنه أصبح فى هذه اللحظة السعيدة أشد إيماناً وأكثر تمسكاً من الجاهل بمعتقداته التى ورثها أباً عن جد فأصبحت جزءاً من لحمه ودمه. وهل فى مقدور الإنسان أن يستغنى عن أحد أعضائه طوع رغبته وإرادته ؟!

كلا ، إن هذا ليستحيل، اللهم إلا إذا كان قد فقد حواسه الخمس ولم يعد يشعر بلذة الوجود ...

لم يسمع إلا ضحكة خفيفة حين سأل شيخاً كان قد مر به وهو لا يزال فى مكانه كالتمثال ...

— أى عمى العزيز ! بيت من هذا ؟

وبعد أن تطلع المجوز بعينيه الضعيفتين إلى وجه صاحبنا فى هذا الظلام ، وقد فاحت رائحة السموط من أنفه أجاب بكل فتور مستريباً :

— لا أدرى

وهم أن يتابع سيره وهو منقاد لعصاه الغليظة التى أكسبت سيره نغماً موسيقياً خاصاً به وشكلاً يلوح جميلاً فى أعين الفنانين ...

استوقفه متوسلاً وقال له :

— أحق وأنت قد خرجت من ذلك البيت الذى فى نهاية الطريق... أيعقل يا سيدى وأنت فى مثل هذه السن، أنك لا تعلم شيئاً عن جيرانك ؟ هذا إن كنت

لا تلم بتاريخ حياة كل أسرة مفصلاً . . . لا تخش بأساً أيها العم ، أنا لست لصاً . . . بل أنا . . . أنا أريد أن أستعلم منك فقط عن اسم صاحب البيت وذلك لأنى أريد أن أخبره بشيء . . . بأمر ضرورى . . .

— وما وجهة الضرر فى هـذا الأمر ؟ هل سيحل به مكروه ؟ قل ما هو هذا الضرر ؟. وأمسك لحيته بقبضة يده اليسرى شأن الشيخ المستفهم . فأجاب مظفر وقد حار فى أمر هذا العجوز الجاهل إذ لا يفرق بين الضرورى والضرر :

— لا يا شيخ ، أريد أن أقابله

— وكيف تقابله وأنت لا تعرفه ؟

— لأبين له حقيقة حالى . . .

فسعل الشيخ وقال :

— أتقدم إليه صورتك ؟ ولماذا ؟

أجاب مظفر وقد نفد صبره قائلاً :

— أريد أن أشرح له قضيتى . . أريد أن أبين له مسألة تتعلق بى . قل لى بربك من هو ؟ وإلا اضطررت إلى سؤال غيرك

فقال الشيخ وقد ارتسمت الحدة على وجهه ودق صوته وارتفع . . .

— يلوح لى أنك غريب عن هذا البلد وإلا كيف تجهل من كان . . . ولم يتم كلامه حتى فتحت النافذة التى تطلع إليها صاحبنا وظهرت الفتاة ثانية إذ قالت :

— يا عمى الشيخ حسين (وكان هذا الشيخ يتردد على جميع العائلات فى ذلك الحى لكبر سنه ولأحاديثه المسلية ولأنه يعرف التنجيم)

فقطع جملته التى كان مظفر يتطلع إلى نهايتها وأجاب :

— نعم يا بنيتى

فسألته متجاهلة :

— ماذا بك ؟ هل أنت تختصم ؟ لقد سمعت صوتك فخفت أن . . . تعال تفضل وحدثنا بقصتك التى وعدتنا بها أمس . . نحن ننتظرك الباب مفتوح . . أدخل . .

ولم يجد الشيخ مخلصاً من هذا السائل غير الهرب فأدار وجهه شطر الباب ودخل وبقى صاحبنا فى محله وقد توسط الطريق كشرطى المرور . . .

أراد البقاء فى محله ولكنه خجل من نفسه ، ورغب فى المسير فلم تطاوعه . حانت منه التفاتة إلى زقاق يتفرع من هذا الطريق فرأى شخصاً لم يتبينه لأول الأمر ولكن يبدو عليه أنه قد أفرط فى شرب الخمر فثمل ، ولذا أخذت ساقاه مطلق الحرية فراحتا ترقصان رقصة النشوان . . .

لم يكن مظفر يميل إلى السكارى لأنه لم يقرب الخمر ولكنه تريث قليلاً فى محله ولم يقرر شيئاً فاقترب السكير منه وبدأه بالتحية قائلاً :

— ها ها ها . . هلو بابا . . . ماذا تعمل هنا ؟ أتريد أن . . أن (وهنا شدد على النون شأن من ثقل لسانه) تقضى معى ليلة سعيدة ؟ ها ها . . . وكان يخرج مقاطع كلامه بصعوبة وهو يتمايل كالقرد قائلاً :

اسمعنى . . . آه . . . نعم أنت جميل والله العظيم

لم يجبه صاحبنا بل أنعم النظر فى وجهه وتجلت

أمارات الغضب فى غضون جبينه فاتسعت عيناه وتقلصت عضلات يده . . .

لقد عرف السكير وكان قصير القامة ممتلئاً من الوسط كالبرميل ، أما وجهه فكان يشبه السمكة ولذا كنى بها

ولم يدر صاحبنا حتى الآن كيف داعبت قبضته صدغ الموظف السكير . نعم لقد كان موظفاً وذا حول وطول ... لم يتماسك « أبو السمكة » بل فضل أن يستسلم إلى رقاد عميق مفضلاً الرصيف الصلب على فراشه الوثير

سقط مغشياً عليه بباب داره التى دخلها الشيخ حسين ، وهى دار قديمة تملكها زوجته الثانية بعد أن ماتت زوجته الأولى من جراء معاملته القاسية

استدار مظفر وعاد أدراجه لا يلوى على شىء وقد امتلأ رأسه بحادثته الأخيرة التى جاءت عفواً

ترى كيف حافظ هذا الموظف على كرسيه وهو لا يعى عمله لحظة من الزمن؟ إذ لم يحظ (أبو السمكة) حتى بشرف المثول بين يدى (الشيخ[1]) ليقرأ القرآن ويحفظه كما كانت الطريقة المتبعة فى ذلك الزمن بل جل ما تعلمه هو ما لقنه أبوه إياه من كتابة الرسائل التى كانت تكتب على نمط واحد إذ تستهل وتختم (بكليشيه) حفظه عن ظهر قلب

كان هذا قسطه من الثقافة . زد على ذلك افتخاره بأقاربه الذين يشغلون مناصب خطيرة فى الدولة واعتماده عليهم . . .

تهالك مظفر على كرسيه وارتجفت يداه حين سلمه موزع البريد رسالة لم يعرف خط كاتبها حين ألقى نظرة على المظروف! والأغرب من ذلك أنها أرسلت إليه من نفس البلد الذى هو فيه

تلاها مراراً ... وتحسس ورقها بأنامله ليشعر نفسه أنه ليس فى حلم

لم تكن الرسالة إلا من فتاة الليل . . . فتاة النافذة الجميلة . . لم تذكر له فيها سوى أنه اعتدى على والدها فى تلك الليلة. ولو أنها أنبته على فعلته تلك لما غضب ولطلب الصفح والغفران، ولكنها أكبرت فيه رجولته كما ذكرته بزيارته الليلية التى جاءت عفواً فغرست بذور الحب فى قلبها ، وقد ضربت له فيها موعداً . . .

كانت تميل إليه قبل أن يعرفها لأنه قد راق لعينيها وكفى . ولكنها نفسها لا تدرى لماذا مالت إليه ! ألأنه كان جميلاً ؟ كلا . . . لأنه لم يبلغ درجة تجعله يحلو بعيني رائيه . . . لكنه كان غريب الأطوار فلسفى النظرة . . . يتعشق بعض الفنون. وهى لا تنسى مدى الحياة ما تركت رسالته فى نفسها من عميق الأثر ، وقد كانت إلى صديق له وسقطت من جيبه عفواً حين أخرج منديله إذ كانت تسير خلفه ... لقد آثرت ألا تردها إليه إذ تغلبت عليها غريزة حب الاطلاع ففضتها ولا حاجة بنا لأن نقول إنها تلتها أكثر من ثلاث مرات ولم تدر لم أرسلت آهة عميقة حين انتهت من تلاوتها فغيمت

(١) معلم الأطفال على طريقة الكتاتيب ويسمى أيضا « الملا » بضم الميم

عليها سحابة همّ طيلة ذلك النهار

* * *

قرأ مظفر الكتاب الذى دبجته براعة فتاته الليلية فتراقصت كلماته أمام عينيه وراح يتأمل خطها الضعيف الذى بدا جميلاً فى ضعفه مثيراً فى تعابيره. أما توقيعها الجميل الذى تواضع واحتل مكانه فى مؤخرة الرسالة ، فقد كان وحده أجمل كل شيء إذ بدا إمضاؤها (فريدة) كشعر فتاة همت بتقبيل وجنة حبيبها . نظر إلى توقيعها بعينى فنان كسول وراح يهتف فى قلبه قائلاً :

— آه لقد ضربت لى موعداً وإنها لصدفة فريدة فى بابها ... ولكن هل أقابلها ؟ نعم ينبغى أن أقابلها بل يجب علىّ ذلك . ولكن ربما كان هذا شركاً نصبته لى تريد الانتقام لوالدها المصفوع

ولكن صاحبنا مظفر لم يعد يفكر فيما يترتب على هذا اللقاء بل أخذ أهبته للطوارئ وراح يتمهل فى خطوه بين جدران تلك الطريق المتداعية حين تعالى صوت ناقوس الساعة الكبيرة فى تلك المدينة الهادئة بأنغامه الحزينة يدق العاشرة ليلاً ... الطريق خلو من المارة . قلبه ينبض بشدة حتى حسبه وهو يسمع دقاته بأذنيه أنه فاق صوت ناقوس الساعة

انقطع عن تفكيره حين أبصرها بعباءتها السوداء وهى تقترب منه ، تلفت حوله فلم ير أحداً فانتحى بها ثم سبقها إلى رأس المنعطف الذى قدم منه صاحبه السكير فى تلك الليلة ، وذلك ليتسنى له مراقبة الطريق خشية الرقباء ، أو لينجيه إن كان ثمة فخ قد نصب له إذ اتخذه نمط رجعة إن حل الخطر . بادرته بسؤالها الجذاب الذى يطلق للعاشق حرية الإجابة قائلة :

— لم جئت ؟

ولم ينتظر مظفر بل أجاب على الفور :

— جئت لأحييك تحيتى الأولى والأخيرة، نعم يجب أن تصغى إلىّ ، أنا أحبك ولكنى لا أريد أن أراك ثانية لأنى لا أستحق منك العطف . أنا متقلب وذو نزعات متباينة حتى فى الحب . وصمت برهة لينشق الهواء بأنفه الذى تقاطرت عليه قطرات العرق ، وأردف قائلاً :

لعلك لا تعرفين شذوذى . آه كيف أستطيع أن أبين لك ... أنا أميل إليك واسمحى لى أن أتجرأ فأقول إنى سأكرهك ولربما سبقتنى أنت إلى ذلك بعد أن ينال منا الزمن من تشويه وتخريب . وهنا سمع وقع أقدام تقترب فقال :

— أنا غريب حتى عن نفسى . فكرى جيداً تعرفى الحقيقة . . . أستودعك الله . لم ينتظر أكثر من هذا فتحرك مسرعاً ومرق بخفته المعروفة فى المنعطف وتوارى عن عينها ...

* * *

لم يستغرب صاحبنا مظفر خبر زواجها وذلك بعد مضى ثلاثة أشهر من حادثته الغريبة. لقد أصبحت من أحبها زوجة رجل لا يعرف عنه إلا أنه موفور المال مسلوب الجمال . تاجر شغلت فكره المادة فراح يحتال فى طلبها بشتى الوسائل حتى أنه لم يتورع حين عاكسته الظروف من أن يرسل زوجته لصيرفى

اشتهر بصلفه فى سوق الكسب وبرقته فى سوق الغرام ...

أرسلها لترقق قلبه وتستعطفه على زوجها المسكين الذى أوشك على الإفلاس والتدهور. ذهبت ترجوه أن يقرض زوجها بعض المال علاوة على دينه السابق الذى استحق دفعه ...

لقد مزقت الوثائق وأنقذ زوجها من الإفلاس ولكن بعد أن ارتفعت الأيدى مشيرة إلى فريدة : إنها سقطت ...

* * *

لم تعد تجسر المسكينة على الرجوع إلى بيت أبيها السكير المتحذلق بعد أن طلقها زوجها لكرامته المزعومة التى أوعزت له أن يضحى بشرف زوجته على مذبح مطامعه ... ولم لا وهو لا يشعر بالحب وأنى له أن يشعر به وقد شغل باله حب المال وعريض الجاه ...

إن زوجته لا تمت إليه بصلة قرابة فلا عار عليه إذن بعد الآن . لقد تخلى عنها وطلقها بعد أن لاكت فضيحتها الألسن . ويا لكثرة المتطوعين لحمل أخبار الفضائح يتلونها على السامعين لا يبتغون جزاء سوى كلمة إطراء من السامعين للباقتهم وسرعة التقاطهم لأخبار لا يعيرها العاقل أذناً صاغية . . . لقد دبر الزوج خطة دفاعه ليظهر بمظهره بين الناس ولكن اللوم والعار كانا من نصيب فتاة الطريق (طريق الغرام)

هاهى ذى الضحية قد تسربلت ظلام الليل ولاذت بالفرار من أوجه الساخرين والشامتين .. أما أبوها فماذا يهمه من أمرها ما دام يحصل على زجاجات الخمور يملأ بها جوفه ، وتداعب أنامله تلك الأوراق المالية التى طالما سلبت نهى من تعشقها وأعمت عينه عن طريق الحق لينال ربحه غير المشروع ولتحترق الدنيا بأسرها بنار الكمد والحسرة ما دام هو منفذ القانون ...

لقد عرف كيف يستغل موقف ابنة زوجته ليبتز دنانير العار والفضيحة من الزوج المحتال وليتخم بها جيبه ، مهدداً إياه بالسجن إذا امتنع . وكيف لا يستطيع وهو . . . هو المهيب لا لشخصيته بل لوظيفته ومنصبه .

* * *

إنتقل مظفر إلى بغداد ـ حسب ما تقتضيه ـ وظيفته، وذلك بعد مرور ثلاثة أعوام ما نام فى لياليها إلا وقد شغلت فكره تلك الحادثة ... حادثة طريق الغرام ...

لقد أراد أن يحدث شيئاً فى حياته الراكدة المملة وود أن يجعل بها تغييراً ولو طفيفاً ، ولكن ها هو ذا التغير قد تسرب حتى إلى جسمه ، فنحل بدنه ، وارتسمت التجاعيد على جبينه ...آه ... من أفكاره المضطربة التى تعطخب فى جمجمته التى لو تحطمت لاستراح، إذ كم أوقعه لسانه فى مآزق لا ينجو منها إلا بشق الأنفس ...

لقد طبع على الصراحة ، وتعود حرية العيش منفرداً ؛ فما رغب فى شىء يستطيع الوصول إليه إلا ونفذه غير حاسب للنتائج حساباً . كم كان يميل إلى أفكاره الفلسفية التى تنعقد فى سماء مخيلته فتطير

لها نفسه شوقاً ، ولا يستيقظ من حلمه الجميل إلا ولسانه قد أسرّها إلى آذان أصدقائه الذين يلتفون حوله ، وقد ألفوا شذوذه ، وأنسوا به واستعذبوا أحاديثه ...

لم جئتَ ... لم جئتَ ...

لقد نغصت عليه عيشه هذه الكلمة التي ترددت على لسان فتاته . وطالما اعترته رعشة ألم عميق حين يتذكر جوابه لها . . . لقد أفرط في الجواب ووقع المحذور حيث لا تفيد الذكرى ، وليس باستطاعته أن يتلافى زلة لسانه الذي عبر عن أفكاره المشوشة ونزعته الطبيعية في الحياة ...

لقد انتقل إلى بيته الجديد في بغداد ، وراح يقطع الشارع في السيارة كل يوم قاصداً مقر وظيفته من البتاوين حتى باب المعظم

لقد كان يتأفف من الازدحام واللغط الشديد الذي ضج به شارع بغداد الضيق ، فلا يرتاح إلا حين يحتويه بيته الصغير الذي شيد على الطراز الحديث .

كان يأوي إلى شرفة غرفته المطلة على نهر دجلة فيلقي بنفسه بين أحضان كرسيه ويستسلم إلى أفكاره أو يتلهى بالنظر إلى وجوه المارين يتأملهم أو يجري بعض الإحصائيات التي كانت نتائجها غريبة مضحكة ... لقد أحصى المشوهين كما أحصى الجمال بل حتى عدد السيارات التي كانت تمر أمامه ، إذ كانت هذه تسليته الوحيدة في أوقات فراغه ...

وكثيراً ما كان يرى الكتاب في يسراه وسيكارته في يمناه المرتخية على ذراع الكرسي . ومع أن مظفراً كان كثير الجلوس في شرفته إلا أنه لم يلتفت إلى جارته الفتاة التي كانت تراقبه من شرفتها أيضاً ، إذ لم يشأ أن يورطها ويورط نفسه في الحب الذي يخشاه وإن كان يحلم به !

لقد كانت تكفيه بضع دقائق يقضيها بين أحضان خليلته التي تعشقته ومال إليها ...

لقد كانت جارته تعجب لرزانته وصمته، وكم كانت تسائل نفسها عن هذا الشخص الذي يبدو غامضاً لعينيها ! وكم كانت تنصت إلى أنغام كمانه الساحرة التي كان يداعبها غالب الليالي فتبعث في نفسها الشجون والآلام .. لقد كانت تشعر بأن نفسه كانت تسيل مع أنغامها فتبعث طافحة بأحزانه الوجدانية التي كان يحبسها . .

لقد فرضت جارته على نفسها الرقابة ، وقد كانت جميلة التقاطيع رياضية الجسم فتانة المنظر كما اعترف لها صديقاتها بذلك وهن مرغمات . . إذ كن يحسدنها لجمالها. قلنا لقد فرضت على نفسها مراقبته فنجحت في ذلك كل النجاح ، إذ ما كادت تترك مدرستها الثانوية وترى بكتبها على النضد وكان ذلك يوم الخميس حتى أسرعت إلى شرفتها وأطلت إلى حيث يجلس جارها الصامت، ولكنها استغربت عدم جلوسه في هذا اليوم كما اعتاد لأنه كما يبدو لا يترك بيته، ولكنها عجبت لأمرها إذ كيف تهتم بشخص لا تعرفه إلى هذه الدرجة، ولكنها استغربت كثيراً قدوم فتاة يبدو عليها أنها من الساقطات قد وقفت بباب بيته وضغطت على زر الجرس الكهربائي المثبت في الباب بأناملها الدقيقة . إن سحنتها جميلة وقد بدت عليها علائم المرض، بدت في عينيها الذابلتين وقدها النحيل واصفرارها الباهت كزهرة أوشكت على الذبول

لقد كانت تكسب عطف الناظر إليها قبل إعجابه

بجمالها . ولم تمض برهة حتى ولجت الباب الذى فتح لها وانسلت إلى الداخل دون أن تلتفت إلى ما حولها

لم تنتبه فتاة الشرفة من ذهولها إلا حين نادتها أمها لتناول طعام العشاء إذ قد غربت الشمس ولم تشعر لأنها أصبحت فريسة آلام نفسانية لا تدرى كنهها فقامت متثاقلة إلى المائدة ولم تر والدها لأنه اعتاد أن يأتى فى منتصف الليل وذلك فى ليالى الجمعة

لم تشته نفسها الطعام فعافته ، وكم سألتها أمها مراراً عن سبب سكوتها وتفكيرها ولم تجبها ولكنها الآن راحت تجيب على سؤال أمها الذى طالما سمعته وأجابت عليه بلا شىء — وقد أصبح الآن شيئاً — قائلة :

— إن جارنا يا أمى يجالس الآن فتاة ساقطة فى بيته

— ومن أدراك ؟ لعلها إحدى قريباته

فاندفعت الفتاة مجيبة :

— كلا . كلا ، إذ لم يزره طيلة هذه المدة أحد ما ؛ فهو يعيش وحيداً ، كما أنى شاهدت هذه الفتاة التى تبدو أنها غير شريفة كما هو شأن بنات الشوارع

— وماذا يهمنا يا ابنتى ما دام لم يتعرض لأحد منا بسوء ؟ إنه لا يبدو من الشبان المتهتكين الذين يغازلون جاراتهم وينظرون إليهن من السطوح ومن خلال النوافذ . إنه ساكن هادئ الطبع لم يزعج أحداً فى هذا الحى كما أنه فتى أعزب ، وما ينتظر من هؤلاء الفتيان الأعزاب سوى هذه الأمور ... دعى أمره جانباً ولا تفكرى فى مثل هذه الأشياء إذ لو سمع والدك هذا لأنبك على تدخلك فى شأنه ، وتثيرين سخطه على جارنا فتنشب بذلك قلاقل لا أرتاح لها

لم تجب حميرة أمها إذ كانت تخشى والدها الذى نشأ نشأة عسكرية ، وهو زعيم فى الجيش ولا يميل إلا لكل شىء عسكرى حتى فى شؤونه داخل بيته

لقد شغلت تلك الزائرة بالها . ولم تكن هذه غير فتاة طريق الغرام (فريدة) التى انحطت إلى هذه الدرجة من الذل فراحت تبيع جسدها بدراهم تسد بها حاجتها

كم كانت مهنتها شاقة عليها إذ كانت تخشى أن يظفر بها أحد أقاربها فيكون نصيبها منه القتل قبل أن يتمكن داء السل الذى استفحل بها من إرداتها . نعم هى ذى فريدة خليلته التى صارت تعرف الآن بـ (رافدة)

لقد عرفت صاحبها (مظفر) لأول نظرة ولكنه لم يعرفها . وأنى له أن يتذكر وجهها ولم يشاهده غير مرة واحدة فى تلك الليلة ... ليلة أن شعرت بنفسها تدنو من السعادة ولكن خاب فألها . وها هى ذى تحيا حياة بؤس وشقاء

لقد ألقت بنفسها بين أحضانه حين صادفته مرة فى إحدى بيوت الدعارة السرية وراحت تغريه بتملقها الذى استحال حبا عنيفاً طغى على فؤادها بعد ذلك

لقد أحبته سابقاً حين كانت فتاة طاهرة الذيل نقية السريرة إذ كانت كثيراً ما تلتقى به فى الطريق فتعجب به لما يبدو عليه من ظرف وطلاقة محيا ... وكم كانت تناجيه فى أحلامها وهو لا يدرى من أمرها شيئاً حتى كانت تلك الصدفة العجيبة التى ما كانت تأملها ولم تخطر لها على بال . كانت تود الخلاص من زوج أمها الملقب (بأبى السمك) إذ كان قاسياً فى معاملته لها ولم يشفق عليها لأنها ابنة غيره وقد تزوج من أمها طمعاً فى مركز عائلتها ، ومالها

إذ يستطيع بهما أن يبلغ ما تصبو إليه نفسه .

لقد ودت أن تعرف رأى صاحبها القديم فيها ، فسألته يوماً :

— أتحبني ؟

— كلا يا عزيزتى . أنا أشفق عليك وأميل إليك لأنك مسكينة .

— إذن أنت قد أحببت غيرى من صويحباتى يا خداع (قالتها بدلال) فأجابها متأثراً :

— كلا يا مخلوقتى التعسة أنا لا أميل إلى سواك ولو كنت كذلك فإنى أخشى من أن أصرح لك برأيى لأنى صريح كما علمت

فنظرت إلى وجهه بعد أن سمعت سعلة خفيفة جافة طالما أقضت عليها مضجعها وأهاجت وساوسها قائلة :

— يالك من إنسان غريب الأطوار . ألم تشعر بالحب ؟

وما أتمت كلامها حتى اعتراه شيء من الذهول وقال بصوت منخفض :

— نعم لقد شعرت به منذ سنين خلت لم أذق خلالها طعماً لراحة النفس وهدوء الفؤاد ... لقد كانت لحظة سعيدة اختلستها فى غفلة من الدهر وهأنذا أحاسب عليها حساباً عسيراً . لقد أفقدتنى الأيام بشاشتى وأخذت تستلب عمرى الذى أتنازل عنه فأهبه للدهر ساعات وأياماً وأنا صاغر ذليل ، ولكن هيهات أن تسلبنى الأيام ذكريات تلك اللحظة السعيدة التى دفنتها فى فؤادى . وانقطع عن حديثه إذ رأى صاحبته وهى تسعل بشدة لم يعهدها فيها منذ عرفها

فقال وقد بدت علائم الإشفاق فى نظراته :

— أرى سعالك يشتد يوماً فيوماً وأن صحتك فى انحطاط . ألم تعرضى نفسك للطبيب كما أشرت عليك منذ أيام ؟!

— وماذا يفيدنى . . . بالله قل لى من هى هذه التى سلبت فؤادك فغلقت أبواب حبك دونى ؟

— مالك ولهذا ؟ أنت مريضة ، وإنى لأخشى عليك فيجب أن أعرضك على الطبيب . ولكنها لم تجب شأن من لا يكترث بل ألحفت عليه بالسؤال قائلة :

أراك تتجنب الحديث عنها وتشعر بحزن عميق من أجلها فهل تزوجت من غيرك ؟

— حبذا لو سعدت بزواجها إذ كان قصير الأجل

— إذن لقد ماتت ؟

— أتمنى لها ذلك ...

— ولماذا ؟ كيف تحبها وتتمنى لها الموت ؟ شيء غريب لم أسمع به فى حياتى . وهنا عاودتها نوبة سعالها فاحتقن وجهها وجحظت عيناها الذابلتان وانفرج ثغرها الصغير وقد رفعت إليه منديلها ومسحته ، وبعد أن هدأت سألها :

— لم ترفضين طلبى ؟ إذا كنت لا تستطيعين الخروج معى فسآتى إليك بالطبيب هنا ، ولكنه صمت أخيراً وظهرت على وجهه علائم الاشمئزاز فقال:

— يسوؤنى أن يراك الطبيب فى مثل هذا الحال فعديني أن تأتي معى إلى البيت ليتسنى لى ذلك وإلا فإننى سأتركك مرغماً لأنك خالفت طلبى، وهذا لخيرك ...

فأجابت وقد اغرورقت عيناها بالدموع

— نعم يا مظفر لقد أجبتك ولا يسعنى إلا الامتثال ... لا أريد أن أموت ... لا أريد أن

أموت وأنا فى أيام شبابى وإن كانت محفوفة بالشقاء ذلك لأنى أريد أن أراك دائماً .. أريدك إلى جانبى إذ لم يعد شىء يحول بينى وبينك فى الوجود ... إيه ياعزيزى ولكنك لم تذكر لى عنها شيئاً

— وكيف أذكر لك وأنا لم أرها إلا دقائق معدودات . . .

— كلامك يعنى أنك أحببتها سراً من حيث لا تدرى هى بما تحمله لها

— كلا . لا تثيرى شجونى (وهنا أخرج علبة سكائره ولكنه أرجعها إلى جيبه إذ تذكر أن الدخان يثير سعالها . فطلبت منه أن يدخن فأبى ذلك محتجا بأنه قد نسى ما قرره بأن يقلل من تدخينه وها هو ذا قد تذكر فأعاد العلبة إلى موضعها)

ولكنها استحلفته بحق التى أحبها أن يدخن فقال :

— يظهر لى أنك كثيرة الاهتمام بأمرى

— ولم لا يا حبيبى الفيلسوف ؟ إنك ما زلت تجذبنى بحركاتك ونبرات صوتك بل وبكلامك المبهم الذى يدل على معان كثيرة . فهل كانت حبيبتك ممن يعشقن الخيال ؟ وإن كانت كذلك فلا بد أن تتلو علىّ إحدى رسائلها الغرامية ؟

— إنها لم تكتب لى باصديقتى المسكينة سوى رسالة واحدة، وكانت مختصرة ومقتضبة ، ولم نلتق إلا بضع دقائق ، حيث تركتها فريسة الشك فى حبى لها لأنك كما تعلمين . . .

فأجابت على الفور :

— من عشاق الفلسفة الفارغة ، وأردفت جملتها بضحكة عصبية وقالت له :

— سأزورك فى بيتك كما طلبت منى... وفضلت أن تهرب من أمامه الآن ، لأنها أصبحت فى حالة من القلق والاضطراب لم ينلها أشد البائسين .

وخرج من الغرفة ولم ينس أن يذكرلها عنوانه ، ويحدد لها ساعة الزيارة . ولم تخل الغرفة منه حتى استحالت أشجانها دموعاً تسيل على خديها الذابلين بصمت وسكون لا يعكره إلا سعالها الخافت بين آونة وأخرى ...

ترى ماذا يعمل لو علم أنها فتاته القديمة التى تعشقها ... أيحتقرها وينبذها ؟ أم سيعطف عليها لبلواها ...

راحت المسكينة فريسة ذكرياتها المشجية وهى بين عاملى الضحك والدمع السخين . لقد أصبحت شبه مجنونة لما طرأ عليها ...

إنها كالشمعة المتقدة تحرق نفسها لتضىء لغيرها وسيحين وقت نفادها فيسود الظلام ؛ ولم يعد أحد يذكرها بل سيطلبون غيرها لتفيض عليهم بنور لذائذها .

أهذه هى المروءة ؟ ... أهذا هو الإنصاف ؟ ... تبيع جسدها لتعيش بدراهمها التى كسبتها من لحمها ودمها ... رحماك يارب العالمين ... ارحم فتاة شقية مثلى ... أنت أدرى بحالى ... خذ بناصر مخلوقة ضعيفة ساقتها ظروفها إلى الفحشاء إنك أرحم الراحمين ... حبذا لو سلبت عقول عبادك الذين يفخرون بعقلياتهم على الحيوانات ولكنهم أشد ضرراً من الميكروبات الضارة وأثم لسعاً من العقارب ...

أيبذل الغنى ماله الذى ابتزه من دماء المساكين والفقراء ليشترى به جسد فتاة تردت فى حمأة الرذيلة دون أن يفكر فى إنقاذها ... يالهم من قساة ظالمة ! أهذه هى المدنية التى يدعونها فيسجلها التاريخ صفحات تقرأها الأجيال القادمة ولكنها لا تفكر

على أى أسس من الخزى والعار قد شيدت أركان صروحها ...

لقد تسممت أفكارها لما لقيته من صنوف العذاب والهوان ... فصارت تحقد على البشر بعد أن هدتها فكرتها إلى هذه النتيجة

ومع هذا لم تنس موعدها مع مظفر فراحت واقفة على عتبة داره حين رأتها سميرة من شرفتها ...

لقد زارته مصممة أن تعترف له بحقيقتها لتخفف عن آلامها بإفشاء سرها له الذى أثقل قلبها المحطم. ولجت الممر إلى الداخل ، ودخلت غرفة الاستقبال فوجدتها عارية من مظاهر الترف : أثاثها بسيط ولا تحوى شيئاً يستحق الذكر إلا كاناپه قد وضعت فى زاوية الغرفة على مائدة قديمة تبدو كئيبة فى تابوتها أشارت إليها قائلة :

— نعم يا مظفر كلانا كالكنان، سيحتوينا لحدنا حيث السكون والصمت ... عهدى بك تجيد الغزف عليها ، هلا عزفت لى لحناً من ألحانك الخافتة المؤلمة ... فأجابها :

— لم يحن وقت العزف بعد ... سآتى لك بالطبيب وأرجو ألا تنزعجى إذا تركتك وحدك بعض الوقت .. فمعذرة، يجب أن أسرع

لبس سترته مسرعاً ولكنه نسى أن يضع على رأسه سدارته ليخفى بها شعره الفاحم الذى احتلته جيوش الشيب ، وهو لما يزل فى سن الشباب

لقد كان الدكتور (ن ...) على مقربة من بيته فقصده لشهرته التى لا كنها الألسن فقابله وهو على عتبة داره قاصداً الخروج فرجاه أن يعود فتاته المريضة ولكن الطبيب اعتذر له بأنه على موعد مع أحد الأصدقاء، فقال له مظفر :

لعل صديقك لا يضجر من إخلافك موعده إذا علم بالأمر ، إذ سيضحى ببعض الوقت ، وإن لم يبدو لى أنه ثمين للدرجة تجعلك تضحى بمريض من أجله ...

— قلت لك لا أستطيع ... ولكنه وافق بعد أن عرض عليه أجراً كبيراً فاكترى عربة سارت بهما إلى البيت ...

دخل الطبيب وأدار بصره فى الغرفة ، ولكنه لم ير شيئاً يدل على بذخ صاحبه وغناه . استقر نظره على الفتاة التى بدت شاحبة تحت ضوء المصباح الكهربائى الذى كان ينير فى زاوية الغرفة . فسأل بلهجة جافة قائلاً :

— أهذا هو مريضك ؟

— نعم يا سيدى الدكتور

ولم يسمع الطبيب أكثر من ذلك ففحص الفتاة فحصاً دقيقاً ، وراح يسألها كثيراً وهى لا تجيب إلا بكلمة نعم ولا، حسبما يتطلبه السؤال، وأخيراً قالت

— لقد فات الأوان يا سيدى الطبيب . هيهات أن أشفى. نعم يا حضرة الدكتور إنى لشاعرة بنهايتى ولكن هل فكرتم بالبائسات المظلومات أمثالى ؟ وهل أوجدتم دواء لأمراض النفوس . وهنا انفجرت باكية فلم يتمالك الطبيب من أن يمسح دمعة انحدرت على خده وهمس فى أذن مظفر قائلاً :

— لا رجاء فى شفائها إذ أنها فريسة آلام صدرية تأكل رئتيها وآلام قلبية تحرقها . ولم ينتظر أكثر من ذلك فاستأذن فى الخروج ورفض الأجر الذى قدم إليه. وكأنه أحس بما يعانى صاحبه من الآلام فرفض أن يمد يده قائلاً :

— إن الكريم ليغلبه طبعه حتى فى ساعة الاحتضار ... أرجو يا سيدى ألا تحمل رفضى على غير محمله . أنا لا أقصد الحط من قدرك إذ لا أستطيع

أن أمد يدى إلى أجر لم أقم تجاهه بعمل مرضى

ولم يستطع أن يتكلم إذ خنقته العبرات وفهم كل منهما صاحبه بلغة العيون فخرج الطبيب وهو غريق فى فيض من الشعور غريب

عادت سميرة إلى شرفتها بعد أن عافت نفسها العشاء ؛ فرأت الطبيب وهو يخرج وعرفت مهنته من الحقيبة التى فى يده ، ومن السماعة التى بدت من جيب معطفه فأحست بفضول غريب يدفعها لأن تسأل الدكتور سؤالاً تردد فى ذهنها فأسرعت بالخروج وقد لحقت به على مسافة غير بعيدة واستوقفته وهى لاهثة الأنفاس قائلة :

— يا سيدى الطبيب ... مساء الخير ... أرجو المعذرة لإزعاجى إياك .

نظر الطبيب إليها مستغرباً وقال :

— تفضلى . ولم يتمالك أن ينظر إليها نظرة معجب بجمالها .

— من كان مريضك فى هذا البيت ؟

— ولماذا ؟

— يهمنى أن أعرف من هو

— إنه فتاة ... نعم فتاة مسكينة قد قربت نهايتها ...

— شكراً يا سيدى الطبيب

— أأستطيع أن أؤدى لك خدمة ... يلوح لى أنك كثيرة الاهتمام بالمرضى ؟

— هو ما تقول يا سيدى الطبيب. لشد ما يريحنى أن أستطيع أن أرفه عن بعض آلام المرضى

— أرجو العفو ، هل أنت جارتهم ؟

— نعم ...

— أرجو أن تخبرنى إذا كان أحدهما بحاجة إلىّ عسانى أؤدى لهما بعض الخدمة . وترك لها عنوانه فى بطاقة وسار وهو يفكر بها حالماً بشريكة حياته التى عثر عليها ...

* * *

لم يستطع مظفر أن يجبرها على المكث معه لأنها أبت أن تقضى ليلتها فى بيته فتسلبه راحته ، قالت له بعد أن فكرت طويلاً ...

— إسمعنى يا حبيبى ... سأتلاشى كما تلاشت أنغام هذه الكمان ، ولكن الذكريات هى التى تبقى لنا كسلوى تشغل الفكر ...

أريد أن أعترف لك قبل موتى ... أريد أن أبوح لك بسرى الذى طالما حرصت على كتمانه ... ولكن هل ستحتقرنى ؟ أواه إنى لا أطيق ذلك ... قل إنك تحبنى ، عدنى بذلك ليرتاح قلبي المذنب .. سيحل الفراق الأبدى إذ لا بد منه ولا بد أن أسمع منك كلمة حب .. بل إشفاق ... بل رثاء

— دعى عنك هذا الهذر ... هل رأيت منى ما يسوؤك ؟

— لا يا حبيبى القديم ... منذ كنت فى مدينة (د ...) وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة حيث صادفنى من كان شريك فؤادى فى محلة (...) ورمقنى بعينه الثاقبة وأنا فى نافذتى حيث تحطمت آمالى فى اليوم الثانى

ولم يفعل مظفر إلا أن قفز إليها واحتبس عليه كلامه إذ عصاه لسانه وراح ينظر إليها نظرة شبيهة بنظرة المجانين ، وأخيراً قال :

— أأنت فريدة ..؟ آه يا أملى الضائع لم لم تقولى ذلك من قبل ؟ واحتواها بين ذراعيه العلبتين لا يدرى كيف يحتفظ بها لنفسه ولكنه انفجر باكياً حين عاودتها نوبة سعالها بشدة وقد تدفق الدم من فمها وأنفها ...

ألفى نفسه عاجزاً عن أن يردعها غائلة الموت ...

— يا إلهى ماذا أصنع ؟ فريدة ... فريدة ... أهكذا يكون مصيرك ؟ .

راح يستنجد بكل شىء يقع عليه نظره كالمجانين . ها هى ذى تموت أمام عينيه وتذوى زهرتها فى ربيع حياتها ...

رمقته بنظرة توسل من زاوية عينيها وتكلمت فكان صوتها ضعيفاً فانحنى عليها يسمعها . سألته :

— أتحبنى ؟ أتشفق على مومس مثلى ؟

فنظر إليها والدمع يترقرق فى مآقيه ، وكان هذا هو جوابه الوحيد . فضغطت على يده بأناملها الضعيفة واستطردت قائلة :

— إدع الله أن يغفر لى ما اقترفته من الذنوب إذ غررت بشباب كثيرين ودفعتهم إلى الدرك الأسفل من الرذيلة والفسق ، ولم يكن يوسى أن أفعل غيرهذا ... أنت تعلم ... لقد عرفت حالى ... سأموت مرتاحة

نظرت اليه نظرتها الأخيرة وارتعشت شفتاها وأسلمت الروح

* * *

عثر الدكتور (ن ...) وهو يتصفح كتاباً قديماً فى مكتبة زوجته (سميرة) وذلك بعد ست سنوات — على رسالة تلاها مراراً وعرف ما أشفق أن يفاتح به زوجته كما كانت هى أيضاً كذلك ، وهو :

إلى جارتى العزيزة :

أرجو الصفح عن شخص تعدى حدود الأدب فى كتابته إليك دون سابق معرفة ... أى جارتى العزيزة لم يعد يوسى إلا أن أكاشفك بحقيقة أمرى

لقد كنت تحصين على حركاتى وسكناتى ، وإنى لأحمل لك أطيب الذكرى فى قلب حطمته الآلام لاهتمامك بى .

لقد خشيت عليك منى وأنت حديثة عهد بالحب . ولا أكتمك إعجابى بجمالك ؛ فوددت لك زوجاً صالحاً يرعاك ويشعرك بالسعادة وتمنحينه عطفك الذى ينسيه متاعبه فتتمتعان بنعيم الحياة !

لقد أبصرت نتيجة الحياة فى بيتى ... ولا أنسى دمعتك التى جادت بها مقلتاك ، إذ كانت بلسماً لجراح بائس مثلى ...

إبتعدى جهدك عن التفكير فى الحياة وإلا جلبت إلى نفسك الأحزان . . . خذى الأمور على علاتها ولا تسألى عن أسبابها . إذ لا تساوى الحياة دمعة تذرفينها أو آهة تلفظينها !

ربما لا أراك بعد ... وإن كان يعز على أن أفارق شرفة بيتى !

سأرحل وقلبى يحمل لك أخلص الود وأطيب التمنيات . ولى أمنية أرجو أن تحققيها إن كنت ترغبين ...

أرجو أن تزورى قبر رفيقتى التى عاشت بائسة شقية !

جارك : مظفر

وما أتم الرسالة حتى رأى زوجته لدى الباب ، ونظر كل لصاحبه نظرة تنطوى على الإشفاق . فقام واقتادها إلى الشرفة ، ونظرا إلى شقة جارهما التى استأجرها شيخ عجوز . نظرت إلى شرفته وأشارت قائلة لزوجها :

— لقد كان يجلس هنا .

ولم تتمالك نفسها فوضعت رأسها على كتف زوجها باكية !

لم ينبههما إلا طفلهما الذى جاء منادياً أباه قائلاً:

— بابا ... بابا ... بكره عيد ... اسمع ها هو المدفع ... هى هى ... وصفق بيديه الصغيرتين طرباً

أما أبوه فقد قال لزوجته :

— غداً سنزور قبرها ... وسنوزع الصدقات لأجلها ... لقد كانت تحرق قلب من ينظر إليها ياسميرة ... ولست بناس ذلك اليوم ما حييت ...

« كربلاء » السيد قاسم السيد محمد

العزيزة

للكاتب الروسي انطون تشيكوف

بقلم الأستاذ حنفي محمود جمعة

كانت تجلس أولينكا ابنة بليميانيكوف الموظف المحال على المعاش في حديقة منزلها وهي غارقة في التفكير

كان الجو حاراً والذباب مزعجاً ولكن كان يريح الإنسان أنه يشعر بقرب حلول المساء؛ وراحت تتجمع في المشرق سحب محملة بالأمطار جعلت الهواء كثيفاً مملوءاً بالرطوبة. وهناك وقف في وسط الحديقة ذلك الفتى « كوكين » مدير المسرح الطلق الهواء الذي يسمونه التيفولي

وهو يقيم في المنزل نفسه. وقال يائساً وهو يتأمل صفحة الكون : « ستمطر السماء ثانية . المطر كل يوم. إن الطبيعة تريد دماري . سوف أشنق نفسي . إنه الهلاك . خسائر فادحة كل يوم »

ثم لوح بيده ومضى يوجه حديثه إلى أولنكا : « إليك الحياة التي نحياها يا أولنكا بليميا نيكوف أليست هذه الحالة كافية لأن تجعلنا نجأر بالشكوى؟ إن إنساناً يعمل كل ما تسعه الطاقة ويجهد نفسه غاية الجهد ويقضي الليل ساهد الطرف وهو يكد ذهنه باحثاً عن خير الوسائل للإتقان ثم ماذا يكون جزاءه ؟

أول ما نصطدم به جمهور جاهل غبي . إني أقدم لهم أحسن الروايات وممثلين من الدرجة الأولى ولكن أتحسبين أن هذا هو ما يطلبونه ؟ إنهم لا يتذوقون الفن الصحيح بل يودون مهرجاً ويرغبون متعة رخيصة . ثم هذا الطقس اللعون أيضاً . إنها لا تمطر إلا مساء وقد بدأت هذه الحال في العاشر من مايو وظلت هكذا في مايو ويونيو . هذا مخيف في الوقت الذي لا يقبل فيه الجمهور على مسرحي . مطلوب مني أن أدفع الإيجار ومرتبات الممثلين »

وتجمعت السحب في مساء اليوم التالي فقال كوكين وهو يضحك ضحكة عصبية : « فلتمطري أيتها السماء ، فيضي على الحديقة ، أغرقيني . تباً لهذا الحظ العاثر في الدنيا والآخرة . فليشنقني الممثلون وليذهبوا بي إلى السجن أو إلى سيبيريا أو إلى ساحة الإعدام . ها . ها . ها »

ثم كان اليوم التالي والحال لا يتبدل

كانت أولنكا تصغي إلى كوكين في صمت حزين بل كانت تتبادر الدموع إلى مآقيها. وقد لمست هذه المتاعب وتراً حساساً في نفسها مما جعلها تغرم به

لقد كان رجلاً نحيلاً ضئيلاً ذا وجه أصفر تهفو على جبهته خصلات من الشعر، وإذا تحدث ففي صوت موسيقي رفيع فيتحرك فمه من جهة جانبية واحدة. وكانت تلوح على محياه دائماً علامات اليأس إلا أنه برغم هذا أثر في نفسها تأثيراً بيناً

إنها كانت ترغب دائماً أن تحب إنساناً ما ولا يمكنها أن تحيا بغير الحب

في صغرها أحبت أباها الذي يجلس الآن في غرفة مظلمة يتنفس في عسر

ثم أحبت خالتها التي كانت تزورهم العام بعد

العام . ولما كانت فى المدرسة أحبت معلمة اللغة الفرنسية . هى فتاة طريفة رقيقة القلب سريعة التأثر ذات عينين وديعتين وصحة جيدة ، وكان المتحدث إليها يقول فى نفسه حينما يلمح منها خدين فيهما حمرة وردية فاتنة ورقبة بيضاء ناصعة وابتسامة بريئة ساذجة: (لا بأس بها) بينما كانت النساء إذا ماجلسن إليها يبادلنها الأحاديث لا تملك الواحدة منهن نفسها من القبض على يدها فى منتصف الحديث ، وتقول فى غبطة لطيفة: (أيتها العزيزة). لقد كان المنزل الذى تقطنه والذى تمتلكه بطريق الوصية عن والدها يقع فى أقصى المدينة بالقرب من مسرح التيفولى فكانت تستمع فى الأمسيات والليالى أنغام الفرقة الموسيقية وأزيز الألعاب النارية فتقول فى نفسها إن هذه الأصوات إنما هى صوت كوكين فى عراكه مع القدر أو سخطه على ذلك العدو الألد ، ألا وهو جمهور النظارة الجاهل . إنها كانت تحس برعشة مريحة تعتلج فى صدرها. وضعفت رغبتها فى النوم . وكانت تظل ساهرة تنتظر عودته إلى المنزل فى الصباح المبكر فتطرق نافذة غرفتها طرقات رقيقة ولا يبدو منها من وراء الزجاج غير رأسها وجزء من كتفها فتحييه بابتسامة عذبة . عرض عليها الزواج فقبلت . وحينما أصبح من حقه أن يشاهدها عن كثب ورأى منها رقبة عاجية وكتفين جميلتين أحاطها بذراعيه وهو يقول : (أيتها العزيزة)

لقد كان سعيداً ؛ إلا أن السماء ظلت تمطر نهاراً وليلاً يوم الزفاف فجعلته حزين النفس تعلو صفحة وجهه علامات اليأس

عاشا معاً سعيدين ، واعتادت أن تجلس فى مكتبه لتدير شئون المسرح: تدون الحساب وتدفع الأجور ، وكان خداها المتوردان وابتساماتها المضيئة العذبة الساذجة تتراءى خلف نافذتي المكتب أو فى مشرب المسرح ، أو وراء الكواليس ، وكانت إذا تحدثت إلى صاحباتها تقول إن المسرح أهم شىء فى الحياة؛ وإن الرواية الدرام وحدها هى سبيل المسرة والتثقيف إذ تتجمع فيها معانى الإنسانية .

ثم تستدرك فى حديثها وتقول : ولكن هل تظنين أن الجمهور يعقل هذا ؟ إنهم لا يريدون إلا التهريج. لقد عرضنا أمس قصة (فاوست) فكانت جميع المقاصير خالية ، فلو أن كوكين وأنا قدمنا للجمهور بضاعة رخيصة فإنى أوكد لك أن المسرح يمتلىء على سعته . غداً سيقدم كوكين وأنا رواية (أورفياس فى الجحيم) فنرجو تشريفك

وكان كلما قال كوكين شيئاً عن المسرح وعن الممثلين رددته أولينكا وأعادته؛ فهى تحقد على الجماهير لأنه يحقد على الجماهير ، وهى تحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن لأنه يحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن. وكانت تشترك فى البروفات وتصلح للممثلين أخطاءهم وتراقب الموسيقيين، وتنطلق إلى مكتب الجريدة المحلية وهى تبكى لأنها اطلعت على نقد قاس فيها موجه إلى مسرحها فتقابل المحرر وتصحح له الوقائع

كان الممثلون يحبونها وأطلقوا عليها (كوكين دانا) أو (العزيزة) وكانت تحزن لحزنهم وتقرضهم مبالغ صغيرة. وطالما خدعوها. إلا أنها لم تكن تذرف غير دموع قليلة فيما بينها وبين نفسها فى خفية من زوجها

ومضى الشتاء على ما يرام ثم استأجروا مسرحاً فى المدينة إلا أنهم آجروه لفرقة روسية صغيرة. ومضت الأيام فاكتئبت أولنكا لحاً وكانت تخطر سعيدة

راضية، وأما كوكين فقد زاد نحافة واصفراراً، وكان دائم الشكوى للخسائر الفادحة ولو أنه لم يكن سيئ الحظ فى الشتاء

وكانت تناوله قدحاً من الشاى إذا أصابه السعال أثناء الليل أو تدلكه بماء الكولونيا وتلفه فى أغطية من الصوف ثم تقول له فى إخلاص عميق وهى تعبث بشعره: (ما أعزك عندى). ورحل يوماً إلى موسكو ليجمع فرقة جديدة فلم يطرق النوم أجفانها لأنه بعيد عنها. وكانت تجلس طيلة الليل قبالة نافذتها تحصى النجوم فكانت شبيهة بالدجاج التى تستيقظ بالليل وهى تصيح فى قلق واضطراب لأن الديك لم يكن فى عشته

بنى كوكين فى موسكو مرغماً فأرسل إليها يقول إنه سيعود فى عيد الفسح، ثم أشار عليها ببعض تعليمات خاصة بالتيفولى

ولكن فى ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد السابق للعيد بلغ سمعها طرق عنيف على الباب كأنما أحد يطرق برميلاً. فذهبت الخادم فى عيون ناعسة وقدم عارية وهى تجرى لتفتح الباب وصاح من الخارج صوت ضخم يقول:

أرجو فتح الباب فإن معى برقية. كثيراً ما تناولت أولنكا من زوجها برقيات ولكن فى هذه المرة شملها سكون وفزع. ثم فتحت البرقية بأنامل مرتعشة فإذا بها تتلو: (مات إيفان كوكين اليوم فجأة. أنا فى انتظار الإرشادات المتعلقة بالجنازة)

وكان مرسل التلغراف مدير المسرح

وبكت أولنكا ما شاء لها البكاء وكانت تقول: آه يا عزيزى كوكين يا جوهرتى المحبوبة. لماذا ألقى بك القدر فى طريق حياتى، ولماذا عرفتك وأحببتك؟ إن عزيزتك أولنكا الكسيرة الفؤاد أصبحت وحيدة الآن بدونك

لقد كانت الجنازة فى يوم الثلاثاء فى موسكو وعادت أولنكا إلى المنزل يوم الأربعاء. وما إن بلغت غرفتها حتى ألقت بنفسها على فراشها ومضت تنتحب فى صوت مرتفع بلغ رنينه أسماع الجيران

فقالوا: مسكينة هذه العزيزة أولينكا! ماذا يكون مصيرها؟

وانقضت ثلاثة شهور فلاقت أولينكا وهى عائدة من الكنيسة حزينة كئيبة جاراً لها يدعى فاسيلى أندوبتش بستوفالوف كان يعود هو أيضاً من الكنيسة، فسار بجانبها، وهو مدير محل بابا كيت تاجر الخشب. كان يضع على رأسه قبعة من الخوص ويرتدى بدلة بيضاء، وتحيط بمعصمه ساعة ذهبية فكان أشبه بسيد محترم منه برجل تاجر. قال لها فى عطف ظاهر:

إن كل شىء يا أولينكا سيميانوفنا يسير إلى أجل محتوم، وإن كل عزيز من أعزائنا لا يخطفه الموت إلا بإرادة من الله فيجب أن نستعين بالصبر ونحتمل فى خضوع

وبعد أن أوصل أولينكا إلى باب حديقتها ودعها ومضى

كانت تستمع إلى نغمة صوته الجليل كل يوم. وكانت كلما أرخت أجفانها وترامت لها لحيته السوداء أعجبت به الإعجاب كله كما إنها أثرت فى نفسه. وما هى إلا أيام قليلة حتى زارتها سيدة عجوز لا تعرفها إلا معرفة بسيطة

جلست العجوز وشربت القهوة ثم تحدثت عن فاسيلى وقالت عنه إنه أحسن رجل يمكن

أن يعتمد عليه وإن أية فتاة لتود الاقتران به

وبعد ثلاثة أيام أقبل فاسيلى بشخصه . لم يبق طويلاً ولم يتحدث طويلاً بل عشر دقائق فقط ولكن بعد أن ودعها شعرت أولينكا أنها تحبه . تحبه جداً . حتى إنها ظلت الليل كله ساهرة وقد انتابتها الحمى. وفى الصباح أرسلت فى طلب السيدة العجوز ثم انعقد القران

وكانا سعيدين بهذا الزواج

كان يجلس فى مكتبه حتى ميعاد الغداء ثم يمضى بعد ذلك إلى أعماله الخارجية فكانت أولينكا تحل محله فى المكتب تقيد الحساب وتنظم الطلبات . وكانت تتحدث إلى العملاء وإلى الأصدقاء وتقول إن سعر الخشب يزداد ارتفاعاً كل عام فقد ارتفعت الأسعار عشرين فى المائة . ولكننا مع ذلك نبيع ؛ ولذا فإن فاسيتشكا (زوجى) يجب أن يسافر إلى مقاطعة موجيليف ليستورد الخشب . ويخال السامع أنها قضت فى تجارة الخشب أجيالاً وأجيالاً وأن أهم شىء عندها هو الخشب

وكانت تنطق الألفاظ فى نغمة مؤثرة أمثال : السويد . والزان . والورينه . واللوح . والورقة وغيرها

وكانت إذا ما أقبل الليل واستقبلت سلطان الكرى تحلم بجبال من الألواح والكتل وعربات ملئية بالأخشاب . ولقد حلمت مرة أن قطاراً ضخمة من الخشب عرضها ست بوصات وطولها أربعون قدماً واقفة على أطرافها؛ وكانت تسير فى المخزن أشبه بفرقة حربية ثم تنبسط على الأرض مستلقية الواحدة فوق الأخرى فى كوم كبير مرتفع

وكانت أولينكا أثناء الحلم تصيح وتتكلم فكان يقول لها زوجها : أولينكا أيتها العزيزة ما بك؟ تنبهى

كانت أفكارها هى نفس أفكار زوجها

إذا ما قال بأن جو الغرفة حار أو أن العمل فى تأخر فإنها كانت تنحو نحوه فى التفكير

لم يكن زوجها ليهتم بوسائل التسلية؛ وكان بقضى أيام الأجازات فى المنزل فكانت تفعل فعله

وكان يقول لها أصدقاؤها :

— إنك دائماً إما فى المنزل أو فى المكتب . يجب أن تذهبى أيتها العزيزة إلى المسرح أو إلى الملعب (السرك)

فكانت تجيبهم :

— ليس لدينا أنا وفاسيلى وقتاً للذهاب إلى المسرح . هذا عبث . ما نفع المسارح ؟

وكانا يذهبان سوياً إلى الكنيسة فى أيام الأجازات ثم يعودان إلى المنزل متأبطاً أحدهما ذراع الآخر وهما يبتسمان بعضهما لبعض . وكانت ترفرف ملائكة السعادة على رأسيهما . ثم إذا جلسا فى المنزل تناولا الشاى والحلوى والمربى وأصنافاً أخرى ، وكانت تفوح من حديقة المنزل فى الساعة الثانية عشرة من كل يوم رائحة الحساء والضأن أو الطيور . وأما فى أيام الاعياد فكانا يأكلان السمك وكان يحس المار بالمنزل بجوعة يسيل لعابها . وأما فى مكتب العمل فإنهما كانا يقدمان الشاى للزبائن والبسكوت ، وكانا يذهبان مرة فى الأسبوع إلى الحمامات العامة ثم يعودان أدراجهما وهما محمرا البشرة

واعتادت أولينكا أن تقول لمن تعرفهم من الناس :

— نعم ليس لدينا ما نشكو منه . الحمد لله . إنى أود أن يكون كل إنسان مثلى ومثل فاسيلى

وحينما سافر فاسيلى ليشترى خشباً من مقاطعة

موجيلف أحست أولينكا بأنها افتقدته وظلت متيقظة بل كانت تبكي

وكان يسكن فى منزلهم جراح بيطرى صغير السن يعمل فى الجيش اسمه سميرنين اعتاد أن يأتى فى المساء يتحدث إليها. وكان فى ذلك شيء من الترفيه والتسلية فى غيبة زوجها ، وطالما سألته عن شؤونه الداخلية الخاصة فعلمت أنه متزوج وأن له غلاماً وأنه افترق عن زوجته لأنها لم تكن مخلصة له فهو الآن يكرهها واعتاد أن يرسل إليها أربعين روبية فى الشهر نفقة للطفل . فلما سمعت أولينكا هـذه الأنباء تنهدت وهزت رأسها وهى حزينة من أجله

قالت له وهى تقوده إلى الباب الخارجى مضيئة السلم بشمعة تحملها فى يدها :

— حسن . الله معك . شكراً لك على زيارتك للترفيه عنى . الله يرعاك ويمنحك الصحة

ثم إذا كان على وشك الرحيل فإنها تقول :

— خير لك يا فلادين بلانويتشى أن تعيش مع زوجتك واعف عنها من أجل الطفل حتى لا يفهم الغلام شيئاً

ولما عاد زوجها حدثته عن الطبيب البيطرى وعن تعاسته المنزليـة فيشترك الاثنان فى التنهد وهز الرؤوس حزناً على الغلام الذى فقد رعاية أبيه. ثم تتحد خواطرهما فيذهبان إلى تمثال المسيح ويطأطئان الرأس أمامه طالبين من المولى أن يمنحهما أطفالا

واستمرت هذه الحياة السعيدة ست سنوات بثمرها الحب والانسجام

ولكن ...

بعد أن شرب فاسيلى قدحاً من الشاى فى يوم من أيام الشتاء فى مكتبه ، خرج عارى الرأس فى الهواء فى شأن من شؤون العمل فأصيب بلفحة برد ومرض

عاده أمهر الأطباء ولكن المرض كان غلاباً ، فما هى إلا شهور أربعة حتى واروه التراب ، وعادت أولينكا أرملة للمرة الثانية وهى تبكيه فى مرارة :

— ليس لى من سند وقد فقدتك إلى الأبد

آه يا عزيزى. كيف يمكننى أن أحيا بدونك؟

ستكون حياتى شقية بائسة

يا للشقاء ! ...

هل يعيش أطيب الناس قلباً فى هذه الحياة الجدباء المنفردة على هذه الحال ؟

أهملت أولينكا ارتداء القفاز والقبعة وغير ذلك من الثياب اللامعة الفخمة الأنيقة ، ولم تكن تلتفت إلا برداء أسود ، ولم تكن تخرج من المنزل إلا إلى الكنيسة أو لزيارة قبر زوجها . وكانت أشبه براهبة

وبعد مضى ستة شهور فتحت النوافذ المغلقة ، وكان يشاهدها الجيران فى بعض الأحيان ذاهبة إلى السوق مع خادمتها لتبتاع حاجياتها المنزلية ، ولم يكونوا يعلمون عن أحوالها الداخلية شيئاً

إلا أنهم كانوا يرونها تجلس فى الحديقة لتشرب الشاى مع الطبيب البيطرى الذى كان يقرأ لها الجرائد

وقد قالت يوماً لامرأة قابلتها بجوار مكتب البريد :

— لا توجد فى المدينة رقابة صحية على الحيوانات. وهذا هو السبب فى وجود الأنواع المختلفة من الأمراض المعدية ، وكثيراً ما نسمع أن أناساً أصيبوا بالعدوى من شرب اللبن ، أو انتقلت إليهم الأمراض من الخيل أو البقر .

إنه يجب العناية بأمراض الحيوان كما نهتم بأمراض الإنسان

وهى بهذا القول تعيد ما سمعته من الطبيب البيطرى ، وكانت أفكارها تتفق مع آرائه تماماً

إنها لم تكن تقدر أن تعيش سنة واحدة بدون أن تكون ذات صلة بإنسان ما ، فكانت سعيدة بهذا الجار ، ولم يظن أحد بها سوءاً لأنها كانت طبيعية فى جميع تصرفاتها ولم تكن تخفى شيئاً . وقد حدث أن أضاف الطبيب البيطرى بعضاً من أصدقائه فى الجيش ، فجلست أولينكا معهم لتسكب لهم الشاى ، وكانت تحدثهم أثناء ذلك عن الطاعون البقرى وعن بداية المرض وعن المجازر البلدية . وقد دهش الطبيب المسكين لهذا جميعه. فلما أن رحل الضيوف قبض على يدها وحدثها وهو غاضب :

— لقد نبهت عليك من قبل ألا تتحدثى عما لا تعرفينه وخصوصاً فى جمع من الأطباء البيطريين. أرجوك ألا تتدخلى فى مثل هذه الشؤون ... هذه حالة متعبة ...

فنظرت إليه فى حدقة متسعة وعجب بالغ وقالت :

— إذن فى أى موضوع أتحدث ؟

وتعانقه والعبرات تسيل على خديها راجية منه ألا يغضب ، وكانا سعيدين

ولكن السعادة لا تستمر طويلاً ، فقد رحل الطبيب البيطرى إلى غير عودة ، إذ نقل مع فرقته إلى مكان بعيد جداً ... إلى سيبريا

وأصبحت أولينكا وحيدة ، بل وحيدة بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ فقد مات والدها أيضاً وخلف كرسيه بعلوه الغبار وبجانبه ساق صناعية من الخشب

ونحل جسمها وأجهدتها السنون فلم يلتفت إليها الناس كسابق عهدهم ، ومضت الأيام الأولى السعيدة وتغيرت وجهة حياتها تماماً

إنها تجلس فى الحديقة وتسمع أصوات الموسيقى تلحنها فرقة التيفولى ، ولكن لا تهزها الأنغام الصادحة ولا يهمها شىء ما ، ولم تكن تفكر فى شىء ولا ترغب فى شىء ولا تحلم بشىء. إنها كانت تأكل وتشرب بطريقة آلية ...

إنه لم يكن لديها ، وهذه أسوأ حالة ، أية آراء أو خواطر من أى نوع كان

كانت تشاهد الحوادث تمر بها متتابعة وتفهم ما تسمع وتعى ما ترى ولكن كانت تعجز عن تكوين أى رأى ولم تدر فى أى موضوع تتحدث

ما أتعس ألا يكون للانسان خلجات نفسية أو خواطر ذهنية! إنك ترى الزجاجة مثلاً أو تشاهد المطر أو عابر سبيل فما معنى هذا ؟

ليس من الميسور الرد على هذا السؤال ولو دفع عن الإجابة ألف روبية

حينما كان يزاملها فى حياتها كوكين أو فاسيلى أو الطبيب البيطرى كان فى ميسور أولنكا أن تعبر عن خلجاتها بكل وضوح وفى كل موضوع وتبدى رأيها فى أية مسألة تريد. ولكن الآن أصبح رأسها خاوياً كقلبها وحديقتها الجرداء .

ومضى الزمن واتسع العمران فى المدينة وامتد نطاقه وأصبح الطريق القفر شارعاً ممهداً وأقيم مكان التيفولى وموضع مخزن الأخشاب منازل وميادين

ما أسرع الزمن !

إلا منزل أولينكا فإنه ظل على حاله ، بل زاده كآبة كثرة الغبار على سطحه وميل جانب من جوانب عشة الدجاج ولون الصدأ الذى يعلو القضبان الحديدية ونمو نباتات غريبة فى الحديقة المهملة . بل إن أولينكا قد شاخت هى أيضاً . وكانت تجلس

فى الحديقة صيفاً وهى خاوية الروح تملوها كآبة حزينة وصمت مرير

وأما فى الشتاء فكانت تقعد أمام نافذتها ناظرة إلى الثلج المتساقط

وفى الربيع كانت تتنفس عبير الأزهار أو تستمع إلى أجراس الكنائس فتعود إليها ذكريات الماضى فى صور زاهية الألوان وهزات فى الفؤاد وعبرات تملأ المآقى، ولكن هذه الانفعالات لم تكن تدوم غير لحظة ثم تعود إلى حالها من الخلو والصمت الساذج وعدم الاكتراث للحياة

ولم تكن تتأثر أولينكا للقطة السوداء (بريسكا) حينما كانت تقترب منها وتتمسح بها

لم تكن هذه طلبتها فى الحياة، إنها تريد حباً يقلب حياتها ويستغرق وجدانها بل كيانها جميعه روحاً وذهناً

حباً يجعل لها فى الحياة غرضاً ويمنحها تفكيراً ويسكب فى عروقها دماً حاراً

طالما صاحت بالقطة السوداء: إذهبى عنى فلست أريدك

وهكذا مضت الأيام وتعاقبت السنون فلا مرح ولا خاطر. كانت تقر جميع ما تقوله خادمتها مافرا

وفى يوم قائظ من أيام يوليو، وكان المساء قد أشرف على الكون، وكانت قطع من الماشية تعود أدراجها، وكانت الحديقة المهملة تملوها الكآبة

إذا بها تسمع طرقاً على الباب فذهبت أولينكا بنفسها لتفتح الباب. وقد كانت المفاجأة عنيفة حينما ألفت أمامها سمير نين الطبيب البيطرى وقد علاه الشيب وهو يرتدى ملابس المدنيين

حينذاك فقط تذكرت كل شىء فى الوجود فلم تملك نفسها وقد بكت وسقط رأسها على صدره ولم تنبس شفتاها بكلام ما، ولم تدر وهى غريقة فى فيض من العواطف أنها دخلت بزائرها إلى المنزل وأنهما جلسا يشربان الشاى

وإنما قالت أخيراً وهى ترتعش سعادة وسروراً:

— عزيزى فلاديمير، أى حظ سعيد أتى بك إلينا؟

فقال:

— إننى جئت للسكنى فى مدينتكم فقد استقلت من عملى وجئت لأجرب حظى فى الحياة مستقلاً، وقد أزف الوقت الذى يجب أن أهتم فيه بابنى. إنه قد أصبح غلاماً كبيراً وقد تراضيت مع زوجتى كما تعلمين

فسألت أولينكا:

— وأين هى؟

— إنها مع الغلام فى الفندق

فقالت أولينكا وهى متأثرة بالغ التأثر:

كيف يكون هذا؟

ألا يعجبكم منزلى لتسكنوا فيه. أستحلفكم أن تقطنوا معى فلن أطالبكم بأى أجر

أرجوك يا عزيزى فإنى أكون سعيدة فى معاشرتكم. ولما كان اليوم التالى إذا بالحيطان والسقوف قد ضربت بالألوان. ومضت أولينكا فى نشاط كبير تصدر الأوامر هنا وهناك، وكان يشع من عينيها بريق السعادة وتعلو وجهها ابتسامة حلوة، وكانت شبيهة بإنسان استيقظ بعد غفوة طويلة

وأقبلت زوجة الطبيب وهى نحيلة واضحة القسائم مقصوصة الشعر، وكان يصحبها ابنها ساشا وهو صبى فى العاشرة صغير الجرم إذا قيس بعمره له عينان زرقاوان وتنزقان فى الخدين

وما إن دخل الغلام فى الحديقة حتى راح يجرى

خلف القطة السوداء، ورنت فى الفضاء ضحكته الطفلة المحببة السعيدة وهو يوجه الحديث إلى أولينكا :

أهذه قطتك يا خالتى ؟

إذا أنجبت صغاراً فيجب أن تهدينى قطيطة منها فإن أمى تخاف الفيران

وتحدثت إليه أولينكا وأعطته الشاى وامتلأ قلبها غبطة وأحست فى صدرها بأحاسيس مختلفة نحو الصبى الصغير كأنما كان ابنها وفلذة كبدها

وكان إذا ما جلس إلى المائدة ليكتب واجباته المدرسية فى المساء راحت تراقبه بعين وديعة وعطف بالغ وتهمهم فى نفسها :

كم هو ظريف هذا الصبى العزيز إنه جوهرة نفيسة، ما أذكاه !

وكان يقرأ بصوت عال ويقول :

الجزيرة قطعة من الأرض محاطة بالمياه من جميع الجهات. فكانت تردد أولينكا قوله : (الجزيرة قطعة من الأرض ...)

وكانت هذه العبارة أول جملة وعتها بعد زمن طويل تقضى فى خمول وسنين طويلة مضت فى صمت قاس خال من الخواطر والآراء والعواطف ، وكأن هذا الغلام قد أوحى إليها بالكلام من جديد

إنها الآن أصبحت ذات أفكار مستقلة فكانت تجلس فى وقت العشاء مع عائلة ساشا وتقول : ما أصعب الدروس فى المدرسة العليا . إلا أن المدرسة العليا خير من مدارس التجارة ، إذ أن المتخرج فى المدرسة العليا يمكنه مزاولة مهن مختلفة : الطب والهندسة أو غيرها

ودخل ساشا المدرسة العليا ورحلت أمه لزيارة أختها فى هاركوف ولم تعد ، واعتاد والده أن يذهب كل يوم للتفتيش على الوائى، وكثيراً ما تغيب عن المنزل ثلاثة أيام كاملة ، وأحست أولينكا أن ساشا يكاد يكون كما مهملاً من والديه ، ولذلك فإنها أحاطته برعاية كبيرة وأفردت له غرفة خاصة فى منزلها .

صاحبها شاشا ستة شهور فى مسكن واحد ، واعتادت أولينكا أن تأتى إلى غرفته كل صباح فتراه نائماً نوماً عميقاً هادئاً واضعاً يده الصغيرة تحت خده وكان يؤلمها أن توقظه إلا أنها أخيراً تقول :

ساشنكا ، تيقظ أيها العزيز فقد أزف ميعاد المدرسة ، فكان يستيقظ فى الحال ويرتدى ملابسه ثم يصلى صلاته اليومية ثم يجلس لتناول طعام الإفطار ويشرب أثناء ذلك ثلاثة أقداح من الشاى ويأكل الخبز والفطائر

وكانت تنظر إليه أولينكا نظرها إلى إنسان مقبل على سفر طويل وتقول :

— إنك لم تحفظ درسك تماماً ... كم أن هذا يكدرنى . . . يجب أن تذاكر جيداً يا عزيزى وتطيع معلميك !

وكان يجيب ساشا :

— اتركينى !

ثم يترك المنزل ويسير فى الطريق متجهاً إلى المدرسة . وكان يبدو ضئيلاً وهو يحمل حقيبته على كتفه فتتبعه أولينكا عن كثب وهى صامتة وكانت تناديه : ساشنكا !

ثم تضع فى يده قطعة من الحلوى ، فإذا اقترب من شارع المدرسة وأحس فى نفسه الخجل من مصاحبة سيدة عجوز طويلة يلتفت إليها ويقول :

— يحسن بك أن تعودى يا خالتى وتدعينى أسير بقية الطريق وحدى !

فكانت تقف ساكنة وهى تراقبه حتى يختفيه باب المدرسة عن نظرها

لقد أحبته ولم يؤثر فى قلبها أى لون من ألوان الحب السابقة مثلما أثر فيه هذا الحب فإنه كان أعمقها أثراً ، ولم تخضع روحها من قبل لمثل هذا الشعور العنيف الذى لا غاية له

إن هذا الحب قد أحيا فى فؤادها جميع مشاعر الأمومة وغرائزها الهادئة

إنها كانت على استعداد لتضحية حياتها من أجل هـذا الصبى الجميل ذى الطاقية الواسعة . إنها تفتديه بروحها عن طيب خاطر

لماذا ؟ من يمكنه أن يقول لماذا

وبعد أن غاب ساشا عن بصرها رجعت أدراجها مرتاحة القلب هادئة النفس سعيدة بحبها له وقد عادت إلى وجهها نضرة الشباب ونفحة الصبا ، وكان ينظر إليها الناس مسرورين قائلين :

ألا عمى صباحاً يا أولينكا سميانوفنا! كيف حالك أيتهـا العزيزة ؟ وكانت تقول فى السوق حاكية : (إن الدروس فى المدرسة العليا صعبة للغاية . إنها كثيرة على الأفهام الصغيرة . أمس فى السنة الأولى كلفوه بأن يحفظ عن ظهر قلب خرافة كاملة وترجمة لا تينية وممضلة حسابية . لا شك أن هذا كثير على ذهن طفل)

ثم تتحدث عن المعلمين والدروس والكتب المدرسية مرددة جميع ما سمعته من ساشا

وكانا يتناولان الغداء سويا الساعة الثالثة ، وفى المساء كانا يجلسان لحفظ الدروس معا بصوت مرتفع وحينما كانت تسمعه فى الفراش فإنهـا كانت تقضى وقتاً طويلاً وهى تخط بيديها علامة الصليب ثم تغمغم دعواتها وصلواتها . وبعد ذلك تذهب إلى غرفتها ثم تنام وهى تحلم عن المستقبل فى صورة مبهمة : حينما ينتهى ساشا من دراساته ويصبح طبيباً أو مهندساً ، وحينما يمتلك منزلاً كبيراً فيه الخدم والعربات والخيول ، وحينما يتزوج ويكون له أولاد صغار .

ثم تتأرجح فى عينيها المغمضتين عبرات تتساقط على خديها بينما القطة السوداء الناعسة تهمهم فى نومها ...

ويطرق الباب فجأة فتستيقظ أولينكا وهى تلهث فزعاً ويدق قلبها خوفاً ، وتمضى دقيقة ثم يطرق الباب مرة ثانية فيمر برأسها خاطر يهزها هزاً عنيفاً من قمة الرأس إلى أخمص القدم

لا شك أن الطارق يحمل برقية من هاركوف تطلب ابنها ... الرحمة بى يا إلـهى ... ثم تغرق فى يأس قاتل وتسير البرودة إلى رأسها ويديها وقدميها وتحس فى صميمها أنها أتعس امرأة فى الوجود ... ولكن إذا مضت دقيقة أخرى وسمعت الأصوات فإنها تتبين أن الطبيب البيطرى يعود الى المنزل من النادى

فتهمس فى نفسها : حسن . الحمد لك يارب

ثم يخف الحمل الثقيل عن قلبها شيئاً فشيئاً حتى تحس راحة تامة بعد قليل ، فتقوم من فراشها وتسير على أطراف أصابعها إلى حجرة ساشا فتجده نائماً وهو يصيح فى نومه :

سأعطيكها . إذهب عنى . صه .

حنفى محمود محمد

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع الجبرتى — هاجبه ﴾